منصور هايل

أطياف عدن

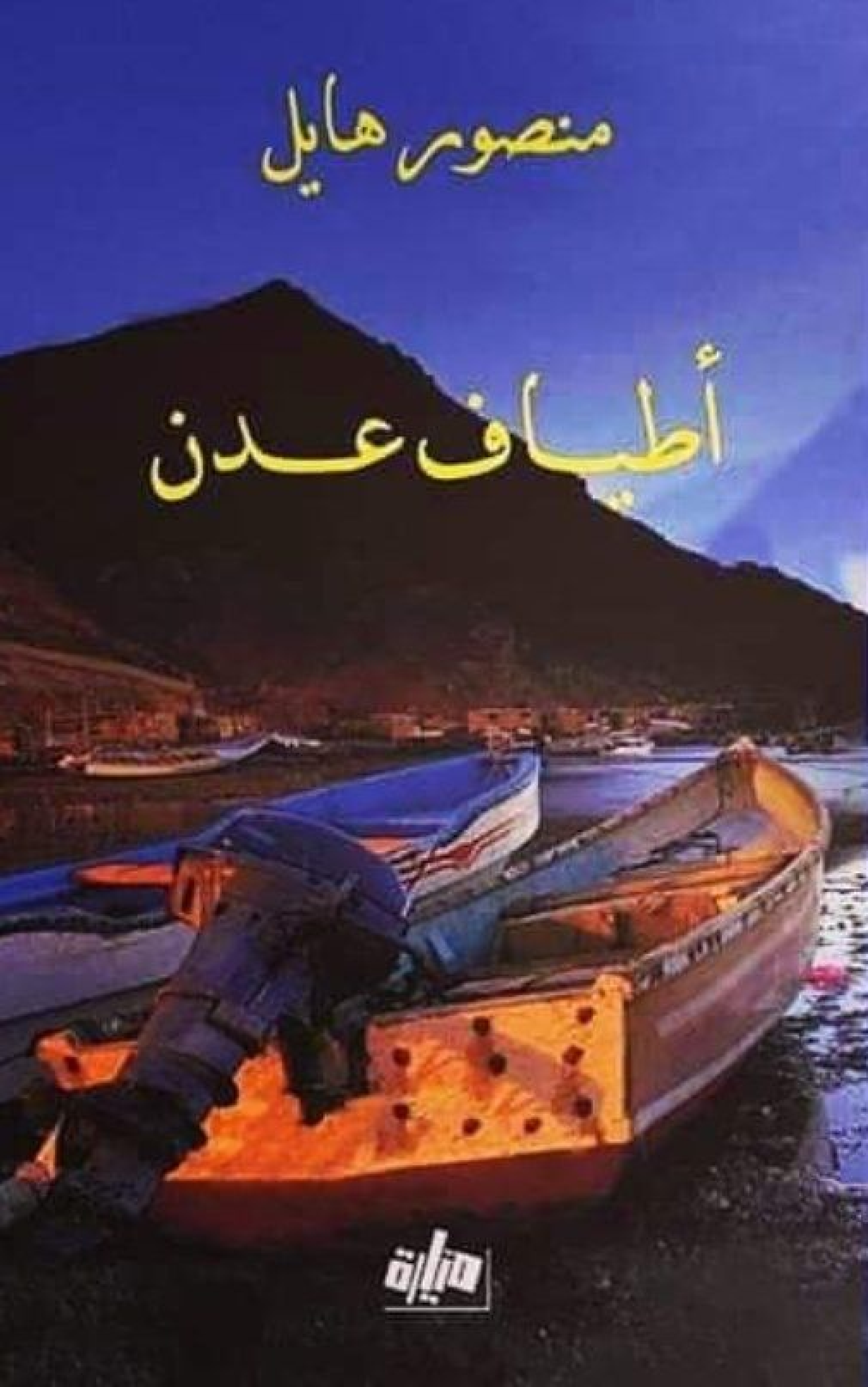

أطياف عدن

هذيان الحطب

منصور هايل

أطياف عدن
هــذيــان الحطب

شهادات سياسية

ميّارة للنشر والتوزيع
MAYARA PUBLISHING & DISTRIBUTION

المؤلّف : منصور هايل
عنوان الكتاب : أطياف عدن، هذيان الحطب
تصميم الغلاف: ميّارة غرافيك
الإخراج الفنّيّ والتصفيف الداخليّ: ميّارة غرافيك
الناشر: دار ميّارة للنشر والتوزيع
محضنة المؤسّسات برقّادة، المكتب عدد1، القيروان
الهاتف: 21880445 / 99095008(216+)
البريد الإلكتروني: mayara.editions@gmail.com
الطبعة الأولى: تونس 2019
السحب: 1000 نسخة
ر.د.م.ك: 3-028-31-9938-978
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

الثمن داخل تونس: 10 د.ت

الثمن خارج تونس: 10 أورو أو ما يعادلها

«عدن لا تمنح حبها للغريب عنها بالروح أكان بدويا جهولاً، أو قبلياً غازياً، أو قرصاناً إمبراطوراً».

أبو بكر السقاف

«إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تستحكم فيها دولة، والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وإن وراء كل رأي فيها هوى وعصبية تمانع دونها، فيكثر الانتفاض على الدولة، والخروج عليها في كل وقت...»

عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة

فهرس المحتويات

أمّا قبل... 09

(1) انتحار جماعي 11

(2) المتهم رقم «1» 13

(3) رأسي رئيس 17

(4) أسرار «الفتح» 25

(5) الحزب يغرق في دمه 35

(6) ربيع عدن 45

(7) «عقدة الناجي» 51

(8) صراع عار 61

(9) ثقافة الإنكار 67

(10) تبييض سياسي 73

(11) أطياف عدن 75

(12) النفط وانتقام الجوار «الرجعي» 91

(13) هذيان الحطب 105

أمّا قبل...

أزعم أنّي تجاوزت سن النبوة والزعامة ولست في حاجة إلى تدليك أو نفاق وتملّق ذوي الشأن والبأس والسلطان، فقد بلغت سن الشتات بجدارة و«لا رئيس لي سوى رأسي»[1] وليس ثمة ما يمنعني من القول بأن السياسة في اليمن كانت ومازالت عبارة عن ممارسة فتوحاتية وغنائمية وانتحارية شخصية وجماعية، تمخضت عن فشلٍ في بناء مجتمع متآصر ومتضامن لا يُقصى فيه أحد ويكون فيه الأمل متاحاً للجميع، والقول بأن الساسة، بالأحرى جلّهم، استثمروا كثيراً في الرياح إلى الدرجة التي أودت بنا إلى هباء «العاصفة» وتلك هي محصلة الارتهان للجهلة والقتلة وزعماء النكد والغصة وشيوخ السياسة وديناصوراتها الذين لم يأبهوا لحاجتهم إلى استخدام «فياجرا» منشطة للذاكرة في اتجاه الاعتبار بما صار وإسعاف ما تبقى من خريف أعمارهم، بعد أن أفرطوا في استخدام «الفياجرا» المثيرة للشبق السلطوي وشهوة التسلط والفجور، وعاشوا زمانهم نكداً ومحناً وجشعاً واستكلاباً واستذءاباً، وأجبروا الناس على طهي الحصى والإقامة في عراء التصحر الإنساني وتحت خط الفقر السياسي والثقافي والمعرفي وعلى خط الإرهاب والرهاب والذهان والهذيان، وفي خارطة ملتهبة بجغرافيا الأحقاد والضغائن والثأر.

منصور هايل

30 نوفمبر 2018

1 – استلهمنا هذا التعبير من الشاعر التونسي سليم دولة.

(1)
انتحار جماعي

13 يناير..الفاروووق

في مثل هذا اليوم 13 يناير 1986م أي قبل أكثر من 32 سنة انفجر الموقف وتغلبت لغة الحسم العسكري على كل محاولات احتواء التنازع في أوساط «القيادة التاريخية» و«القواعد الصلبة والمتماسكة» لحزبنا الاشتراكي اليمني، وتحول التنازع على فتات السلطة البائس إلى تقاتل شرس ومتوحش أسفر عن آلاف القتلى والجرحى والمشردين والمعوقين والمعتقلين، فضلاً عن أنه قصم ظهورنا وأعمارنا وأهدر أحلامنا وآمالنا وفرصنا في الحصول على رخصة للإقامة في العصر والتاريخ، وأسلم رقابنا ومصائرنا للمتربصين بنا والمتكالبين علينا من الضباع في صنعاء والعربان في الجزيرة والخليج.

في تلك المعركة التي استخدمت فيها الدبابات والمدفعية والطيران والبوارج البحرية والخناجر والأنياب والأظفار، تبدد حلمنا دون رجعة في استكمال مرحلة «التحول إلى الاشتراكية»، وفي اختراع وطن.

كنت يومها في توثب ما بعد العشرين، وقد قدر لي الوقوف على الأطلال والجماجم والخرائب، وحكم علي بالهرم المبكر والشيخوخة المستعجلة من تلك اللحظة من هول ما عشت وشاهدت، ومن فداحة خسراني وفقداني معظم أصدقائي

وأحبتي ورفاقي بما فيهم رئيس تحرير الصحيفة التي اكتنفت بدايات خربشاتي وسيرتي العملية –صحيفة 14 أكتوبر– ومدير تحريرها ورئيس تحرير صحيفة «الثوري» ومدير إذاعة عدن، ومدير دار الهمداني، وعشرات الصِّحافيين والكتاب والأدباء والمثقفين والأكاديميين «الكوادر»: فقد قتل جلّهم في عشرة أيام!

ما أكثر الأسماء وما أعسر الإحصاء !

أتعجب وأستغرب حتى الآن كيف نجوت ولماذا؟ من الحمام الدموي الوحشي الذي تفجر وعصف بالبلاد ومزقها في وليمة وعربده انتهت بنا إلى ما يشبه العدم.

13 يناير كانت أكبر عملية انتحار جماعية وعلامة فارقة وصارخة على الإخفاق في إدارة الخلاف والاختلاف، وعلى الخفة والانزلاق إلى تصفية الخصوم والقتل، وبالأحرى تصفية شرط الحياة والوجود الإنساني القائم على الاختلاف أصلاً.

(2)
المتـهـم رقـم «1»

كانت وليمة القتلة قد استحضرت المحاربين من قبائل طوق عدن، وكافة أصحاب السوابق من المشاركين في جرائم واغتيالات سالفة، وتصفيات و«لحس»، والزعران وفتوات الحواري بقصد تأهيلنا لمستقبل أكثر ميليشاويّة وفوضوية ودموية، وبالكثير من جرعات التوحش.

ولما كان المتهم رقم «1» هو المثقف في ذلك التاريخ والسياق وحتى يوم الناس هذا فقد حكم على الرفاق في «الطغمة» بالعزلة من قبل حركات التحرر والأحزاب الشيوعية العربية والعالمية، بعد أن رمموا عرش سلطتهم بأكداس من جثث الرفاق في «الزمرة» الذين اندحروا وهربوا وتشردوا، واعتقلوا وقتلوا، كما كانوا قد فعلوا تماما برفاقهم في «الطغمة».

كان على الرفاق في «الطغمة» أن يفتحوا نافذة على حركات التحرر والأحزاب الشيوعية ولم يكن ثمة منفذ غير بصيص أتانا من القاهرة عبر الرفاق في حزب التجمع والشيوعيين المصريين، وكانت الزيارة الأولى لعدن للأستاذ والرفيق القدير رئيس تحرير صحيفة الأهالي –التي أصبحتُ فيما بعد مراسلاً لها- حسين عبد الرازق حينذاك إلى عدن أواخر 1986م، الذي حرص كثيراً على السؤال عن أحوال المعتقلين وسأل بصفة خاصة ومشددة عن حال الصديق والرفيق: فاروق علي أحمد.

لم تسنح الفرصة يومها، بل لم يستجب لطلب العزيز حسين بزيارة فاروق في السجن بذريعة أن الخواطر كانت مهتاجة، والرؤوس حامية تجاه «أخطر» المدبرين والمتآمرين على «التجربة الثورية حقنا» !

في العام الموالي عاود الرفيق حسين عبد الرازق الزيارة إلى عدن بدعوة «من قيادة الحزب والدولة» وكان على رأس وفد رفيع يضم رفيقة عمره وشريكة حياته الأستاذة والصديقة فريدة النقاش..

وكما في الزيارة الأولى كنت رفيقاً ومرافقاً للاثنين بتكليف ممن تبقى من «القيادة التاريخية» للحزب وصديقي الأحب الأستاذ محمد أحمد جرهوم وزير الإعلام والثقافة يومها.

كنت المرافق اليومي للرفيقين والصديقين فريدة وحسين أينما حلا وارتحلا.

في هذه الزيارة التي كانت في صائفة 1987م، صمما وأصرا على مقابلة الرفاق المعتقلين في سجن «الفتح» وبالذات الرفيق فاروق علي أحمد، وكنت معهما.. كنت مذهولاً يومها بحق وإلى الآن أعترف بأني مذهول وأحاول التعمق في اللامعقول الذي حدث ومازال يحدث بسبب من عدم الالتفات والإصاخة إلى كلام ذلك الرجل الشجاع –وغيره– الذي لم يكتف بالمشافهة، بل ألح على طلب قلم وحزمة كبيرة من الأوراق قبل أن يرشف قطرة ماء.

*****

لقد تورطت بإفشاء خبر اللقاء الأخير مع العزيز فاروق لأختي وزميلتي أرملة فقيد عدن واليمن وحركة اليسار فاروق علي أحمد العزيزة فاطمة هايل عبر تعليق في «الفيسبوك» ووعدتها

بالكتابة عنه.. أملي كبير في صبرها وانتظارها لكتابة قادمة، إن شاء الله، حول تلك المقابلة وملابساتها وما كتب فاروق.. مازلت أعتقد وليس في كل الظن إثم أن فاطمة كريمة، وسوف تنتظر..

محبتي لنجليهما غيداء وباسل، وكل الأسرة والرفاق الطيبين..

(3)
رأسي رئيس

في الصباح الذي ذهبنا فيه إلى سجن «الفتح» كانت بداية تفتح إدراكي لمعنى أن يصبح المرء جزءاً من حفلة الدم العدمية، وأن ينغمس من حيث يدري ولا يدري، في استنشاق الغبار الأصفر والبارود وبقايا الأشلاء الآدمية، ويغرق في مستنقع الدم والتراب، ويمضي في طريق مفخخ لزيارة الشطر الكهفي من ذاته في مغارة بجوف جبل تسمى: سجن الفتح.

ترى كيف كنا نقيم جنة اشتراكيتنا فوق ذلك الجحيم الذميم؟ وأي عقلية زقاقية نفاقية كانت وراء ذلك الاختراع الفظيع؟ وأي فتح يا ترى كان يقبع هنالك؟ ومن هو صاحب الامتياز في التأليف والمزاوجة بين السجن و«الفتح المبين»؟ عبقرية التوقد برجعة سحيقة تستلهم نرجسية الفتوحات الأولى وترتد بالذاكرة الغريقة إلى سماع رنين أجراس أمجاد الأسلاف وتناهيها ثم تلاشيها وانحباسها في كاتم صوت هذه المغارة: سجن الفتح.

هذه العبقرية كانت عبقرية حقًّا، ومن غير أن تقصد بتوليفها لمفارقة غير مسبوقة تتصل بانشطار دلالات الأسماء: الفتح المبين في صيرورته إلى سجن للفاتحين!

كيف انطلت علينا هذه التسمية التي تشير إلى معنى إسلامي فصيح؟

ثمة أشياء كثيرة لم نتداركها بالاستئصال والاقتلاع حينذاك ولا أسف لأننا لم نكن من الأركيولوجيين حتى ننشغل ونشتغل في الحفر على أصل الأشياء والأسماء والكائنات و«الفتح».

*****

كان عليهم -قبل أن يتحقق «الإنجاز التاريخي» للرفاق اليساريين المصريين بزيارة الرفيق فاروق علي أحمد في سجن «الفتح»- التحلي بالكثير من الصبر والتأني والتأتأة والحذر، ومكابدة مشاق الماراثون الكبير، مع أنه لم يكن شاقًّا على أُناسٍ عصرتهم نضالات مديدة ومعاناة التعذيب في سجون مصر والملاحقات والتنكيل والويلات والمراس الطويل في أروقة السياسة والكتابة والحوارات المضنية.

وقد صبروا وصابروا وثابروا -فريدة وحسين خصوصاً- وأصروا على السؤال عن فاروق ورفاقه، وألحوا على طلب زيارتهم في السجن للتحقق من أنّهم كانوا على قيد الحياة وضمن محاولة لفتح كوّة أمل تعيدهم إلى الحياة دون أن يفصحوا أو يصرحوا بذلك لذوي الرؤوس المتحجّرة من أصحابنا.

انعقدت الكثير من اللقاءات مع أبرز قيادات الحزب بما فيهم الأمين العام علي سالم البيض الذي كان ظريفاً بتجديفاته وتهريفاته عن «الشفافية الطبقية» وتقبّلوا كلامه بوقار رفاقي وصبرٍ أيوبي... والتقوا بـ«محسن» و«ياسين» و«جار الله» و«د. صايل» و... وصولاً إلى التشاور مع سعيد صالح وزير أمن الدولة لإقناعه بالموافقة «تكتيكياً» على إتمام تلك الزيارة للمعتقلين: فاروق.

من غير المستبعد أن يكون قد انعقد اجتماع للمكتب السياسي لمناقشة هذه «القضية» ولإنجاز الزيارة التي تمت في

صباح اليوم الأخير -هنا تكمن الدراما اللئيمة- لزيارة الوفد اليساري المصري لعدن، لأن حجم استبطان الريبة و«المؤامرة» لدى رفاقنا في «القيادة الجماعية» ببعضهم بعضاً وبغيرهم كان مذهلاً ومهولاً ويتجاوز كل حدود المعقول إلى الدرجة التي أفضت بنا إلى الارتماء في أحضان قاتل ما في القبور وأكل فضلات الغربان والنسور النباش: عفاش القاتل الاحترافي سابقاً والقتيل لاحقاً باحترافية قرآنية وإلهية.

اللافت هنا أن اليمنيين، شمالاً وجنوباً توحدوا بقتل رؤسائهم السابقين وتشريدهم حد التطابق: مقتل ثلاثة رؤساء في الجنوب وثلاثة في الشمال.

*****

أزعم أنّني تجاوزت سنّ النبوة والزعامة ولست في حاجة إلى تدليك أو نفاق وتملّق ذوي الشأن والبأس والسلطان، فقد بلغت سن الشتات بجدارة و«لا رئيس لي سوى رأسي» وليس ثمة ما يمنعني من القول بأن السياسة في اليمن كانت ومازالت عبارة عن ممارسة فتوحاتية وغنائمية وانتحارية شخصية وجماعية، تمخضت عن فشلٍ في بناء مجتمع متآصر ومتضامن لا يقصى فيه أحد ويكون فيه الأمل متاحاً للجميع، والقول بأن الساسة، بالأحرى جلهم، كانوا قد استثمروا كثيراً في الرياح إلى الدرجة التي أودت بنا إلى هباء «العاصفة» وتلك هي محصلة الارتهان إلى الجهلة والقتلة وزعماء النكد والغصة وشيوخ السياسة وديناصوراتها الذين لم يأبهوا لحاجتهم إلى استخدام «فياجرا» منشطة للذاكرة في اتجاه الاعتبار بما صار وإسعاف ما تبقى من خريف أعمارهم، بعد أن أفرطوا في استخدام «الفياجرا» المثيرة للشبق السلطوي وشهوة التسلط والفجور، وعاشوا زمانهم نكداً

ومحناً وجشعاً واستكلاباً واستذئاباً، وأجبروا الناس على طهي الحصى والإقامة في عراء التصحر الإنساني وتحت خط الفقر السياسي والثقافي والمعرفي وعلى خط الإرهاب والرهاب والذهان والهذيان، وفي خارطة ملتهبة بجغرافيا الأحقاد والضغائن والثأر.

وأقول دون تردد إن الموت أصبح بعد يناير يلازمنا ويتنزه بيننا ويتنفسنا ويروضنا في اتجاه استعذاب رائحة المأساة والخراب والكآبة والخواء.

*****

لقد توجس البعض وهجس بارتيابه من مستهل كتابتي «13 يناير... الفاروووق» وذهب هؤلاء إلى الظن بأني سأثير الأحقاد و«الفتنة» وكأنها نائمة «من صدق» وحق في بلاد بدت في ذهن هؤلاء المساكين خالية من الضغائن والأحقاد وعناصر الدمار والتدمير الذاتي والخارجي، مع أن الشواهد تقطع بأن هذه البلاد تمور وتغلي وتتفجر بقنابل الأعماق كلها.

وفي هذا السياق سأرد على «هؤلاء» بالقول إنّ المسألة شخصية جداً أولاً، وإنسانية وحقوقية وأخلاقية قيمية ثانياً، ثم إنِّي أريد أن أتحرر من مجزرة «يناير» وأثقالها بمعرفة بواعثها وأسبابها، وعبر استكشاف واستنطاق الدهاليز الغائرة في النفس البشرية وشركاء الإخفاق، والنأي بالنفس عن مسايرة قطعان الكراهية ومن يرفعون راية «التسامح والتصالح» من باب «التكتيك / الكمين» «وبالانطلاق من منطقٍ ثأري» عبر تعريف الذات بكراهية الجار في القرية المتاخمة.

لقد تعبنا طويلاً، وأفضت بنا خبرة الألم والندم والدم إلى القرف من محترفي الأكاذيب وصانعي الخرافات ونافخي الفقاقيع، وآن -إن لم يكن تأخر- لأن نتلقف المشترك بيننا

ونجعله يتدفق بضوء الألفة الإنسانية، فما أحوجنا إلى ذلك لأن انعدام السلام في بلادنا أفضى بنا إلى الفناء قتلاً وتيهاً وشتاتاً يتخطى بمسافات قصوى السردية الكبرى والمؤسطرة للشتات اليهودي.

ليس ثمة ما يعيب إن قلنا بأنا خسرنا المعركة قبل أن نبدأها، خسرنا معركة منوال التنمية وبالدرجة الأولى تنمية الإنسان فينا ومنا، واستدركنا متأخراً بأن «العدو ليس هو ذلك الذي يقع على الجانب الآخر من الحدود وإنما هو من لا عقل له» من مجانين «الثورجية» ومجانين الله الرحيم وجنرالات الموت وأمراء الطوائف وتجار السلاح والمخدرات والدين والمستثمرين في الرياح.

أكتب هذا وصورة فاروق ماثلة أمامي ومترجرجة في ذهني وهو منكب على الطاولة المعدنية الصدئة يكتب رسالته المنطوية على عدة رسائل لرفاقه في الحزب المنتصرين منهم والمنكسرين، ولرفاقه في الأحزاب الصديقة والشقيقة وحركات التحرر، ويقترح تجريم الاحتكام إلى السلاح وبناء عقد جديد ويشير إلى نتائج وعواقب ما حدث وإلى احتمالات انهيار وتبدد «التجربة» والدولة والشعب.

*****

تمهّد السبيل إلى13 يناير 1986 بضغوط هائلة من موروث الانقسام المديد بين الأقوام والجماعات المحلية، القبائل والعشائر، الإمارات والسلطنات والمشيخات الكبيرة والمايكروسكوبية، وقد عمل المستعمر البريطاني على تغذية ذلك الموروث وتمويله وتفعيله انطلاقا من اقتناعه واعتقاده بأن دعم القبائل في تقاتلها البيني على الموارد والنفوذ يصب في

خدمة استدامة احتلاله بأقل كلفة وبأكثر واقعية ونجاعة.

وبعد ذلك كان الكفاح المسلح بكلّ ما يعنيه من إحراز النصر بفوّهة البندقية والاكتفاء بالاحتفاء بأمجادها وحدها أولاً وأخيراً نشيداً وطنياً وعلامة هوية.

في هذا المنعرج انطوى المعنى على تظهير عضلات الأكثر قوة وشراسة و«بداوة» وكانت المناطق الأكثر فقراً هي «البؤر الثورية» الطليعية لحساب انحسار قوة العقل وانكماشه وكسوفه، وكان ما كان من تقاتلٍ بين الجبهات -القومية والتحرير– والجبهات.

وأسفر الاقتتال، عن ارتفاع صرخة مدويّة مرعبة في هاوية: «كل الشعب جبهة قومية» في ضربٍ من التدشين الرسمي والفعلي للحالة القيامية والإعلان الصارخ عن احتلالٍ للشعب من قبل الجبهة بعد غروب شمس الاحتلال الأجنبي عن الأرض، والتسويغ للحق في القتل واتخاذ القتل عقيدة إيديولوجية، وتدمير وإبادة كل آخر، وإقصاء واغتيال كل مناسبة للحياة في خضم الصراع الضاري والعاري من أجل السلطة بما هي جيب يكتنز المغانم ومعطى نهائي للامتيازات والمصالح وكانت القبائل المقاتلة هي الأسرع في الاستحواذ عليه من أوسع الأبواب وأشدها فتكاً : القتل.

*****

في 2 أكتوبر 1967 أعلن وزير الخارجية البريطاني جورج براون في مجلس العموم عن تقديم بلاده لموعد استقلال الجنوب اليمني إلى نهاية شهر نوفمبر، ويومذاك اندلع القتال الأكثر ضراوة ووحشية بين «مناضلي حرب التحرير» من ذلك القتال الذي كان قد اندلع في مطلع سبتمبر إثر إعلان بريطاني سابق عن انسحاب من عدن في عام 1968.

وبانتصار الجبهة القومية على جبهة التحرير شقت القومية لنفسها درباً في الجحيم، ولأن منطق إقصاء غيرك ينسف شروط وجودك فقد ترتب عن ذلك الانتصار انحشار الجبهة القومية في دوامة التآكل والتقاتل الداخلي ما يفيد بأن الحرب الأهلية في ستينات القرن الماضي شكلت السابقة الأكثر أهمية في تاريخ الصراعات اليمنيّة الجنوبية.

*****

على هامش تلك الحرب بل وفي صلبها كان «الرمز» هو المستهدف الأول بأول طلقة أو تفجير أو اغتيال ومن هنا كانت الإطاحة بأول رئيس للجمهورية قحطان الشعبي وأول رئيس للحكومة فيصل الشعبي في 22 يونيو 1969، وقتل ثاني رئيس للجمهورية سالمين في 26 يونيو 1978 وقتل ثالث رئيس للجمهورية عبد الفتاح إسماعيل في أحداث 13 يناير 1986 و«فرار الرئيس الرابع علي ناصر» من القتل إلى درجة جاز معها لبعض المتابعين القول بأن معظم قادة «التجربة الثورية» تعرضوا إلى أحد مصائر ثلاثة: القتل، الاعتقال، أوالنفي.

في هذه الأثناء ووسط هذا الخضم تزايدت الأوضاع سوءاً وفساداً وتعفناً على نحو آل بالبلاد كلها إلى «خرابة» منهوشة بديدان تحللها إلى عناصرها الأولية وتحولها إلى غابة ذئاب وخرفان برسم الافتراس.

*****

سأكتب عن محنة فاروق ومأساته وهي مأساة بلدٍ وجيل بكامله إن لم تكن مأساة أجيال سابقة ولاحقة، وسأكتب لأنتصر على ذاتي، وقد أصاب من قال إن الانتصار على الذات هو أول

الانتصارات وأعظمها.

سأكتب لفاروق وعن «أحداث يناير» التي أحرقت الحزب و «الإنجازات» والشعب والدولة، بصراعٍ على السلطة والنفوذ كان عارياً من كُل الأغطية ولا علاقة لهُ لا باليسار الانتهازي ولا باليمين الرجعي، فكلهم كانوا شركاء في القتل و«اشتراكيين جداً» في الإخفاق وفي فتح وتوسيع أبواب التنافس الدموي أمام الأجيال التالية على كل شيء وعلى اللاشيء.

سأكتب عن « يناير» حتى لا تتكرر التجربة.

(4)
أسرار «الفتح»

على وقع الدراما الدموية التي شهدتها عدن في 28 يناير 2018، وما أشّرت إليه من استنساخ لـ13 يناير 1986م، وعلى ما سمعنا وشهدنا في المعركة الأخيرة من صراع على السلطة والنفوذ، ومن اضطرام واحتدام وفرز على الهوية، وشحن للحرب وقعقعة للسلاح، ولعلعة نيران واغتيالات وتفجيرات استدعى أحد الأصدقاء الشاعر الكبير سعدي يوسف الذي طالما أحب عدن، وبها جنَّ وافتتن، إلى أن حلت طامة يناير، واقتلعت هذا العاشق الكبير لعدن منها. قبل أن ينقشع غبار الوغى عن أرجائها قائلا:

«أنا في عدن
1986
كنت أرنو إلى جبل كان يسمى حديداً
ولكنه اليوم أحمرُ
قد قال رامبو أنا الآن أسكن في الفُوهة
ليت رامبو رأى ما رأيت
الجحيم الذي كان في عهده خامداً، لم يعد خامداً..
كان أحمراً في بهجة الانتحار
وفي صيف موسكو أسير إلى الساحة..
العلم الأحمر المتألق منعقد في الجبين»

.. جاء هذا الاستدعاء متحفزاً بشواهد ووقائع تسيل في مجرى التكرار السقيم لتجربة فاشلة وفاجعة. إنّ تكرار تجربة

فاشلة يحوّل مجمل الحدث إلى مسخرة مكلفة ثمنها ملايين الضحايا والمشردين، وخراب ديار وأوطان ونكوص إلى الظلمات.

ذلك ما يعنيه يناير حين يتكرر اليوم مسخرةً هوجاء بأدوات عته ما قبل التاريخ والأبجدية السياسية.

*****

بعد جائحة 21 سبتمبر 2014 المتمثلة في العدوان الحوثي على بقايا (الشرعية) والدولة والاجتياح الغاشم للكثير من مدن وقرى البلاد، أصبحت يتيما تقنياً وحرفياً حيث فارق والدي الحياة في 6 يناير2015 بعد أن أصيب بجلطة وشلل، ولحقت به أمي وبينهما كانت أختي الكبيرة رحمة قد قتلت من قبل الميليشيات «الحوثفاشية» في 9 يناير 2017.

هكذا عرفت اليتم المتوحش غير أنه كان يتماً تقنياً وبالمواضعات المتفق عليها لأني في الأصل البعيد والغائر من أيتام يناير الأول .. نعم من أيتام 13 يناير 1986 وللأمر علاقة وشيجة بموت الأب / الحزب وانقطاع وريد الايديولوجية في رأسي وانسحابي (التكتيكي) من الميدان كيساري راديكالي تائه فاقد للبوصلة والاتجاه ومصاب بالتشوش والغبش والغبار المستثار بتدافع جحافل القبائل (الراديكالية) المستطيرة بيسارية داهية.

*****

تتملكني الروايات كثيرا وتأسرني ولا أنقطع ولا أتوقف عن سبر أغوارها، وأقرأ الشهيرة منها والمغمورة والمطمورة، ومن بين ما قرأت مؤخراً رواية (القوقعة) للسوري: مصطفى

خليفة استوقفني البطل فيها وهو يخاطب لينا بنت شقيقه الأكبر -بالمناسبة لينا هو اسم بنت أختي القتيلة-: «أؤمن بقول إن الإنسان لا يموت دفعة واحدة، كلما مات له قريب أو صديق أو أحد من معارفه، فإن الجزء الذي كان يحتله هذا الصديق أو القريب يموت في هذا الإنسان، ومع الأيام وتتابع سلسة الموت تكثر الأجزاء التي تموت داخلنا. تكبر المساحة التي يحتلها الموت. وأنا يا لينا..أحمل مقبرة كبيرة في داخلي تفتح هذه المقبرة أبوابها ليلاً.. ينظر إليّ نزلاؤها ويحادثونني ويعاتبونني».

.. هذا بالضبط ما يحدث لي هذه الأيام حيث تتملكني وتدهمني هذه المشاعر بتكاثر وعصف لا يرحم وللأمر صلة رحم باستدعائي لأحداث 13 يناير واستحضاري لصورة الفقيد فاروق علي أحمد وإطلالته البشوشة، الرشيقة، الذكية، الأنيقة بتقشف وذقن حليق وقميص نصف كم وحضور قوي في غرفة مدير سجن الفتح د.صالح ومصافحته لنا وترحابه بنا وكأنه صاحب البيت: سجن الفتح بكله وكلكله.

*****

وأمّا عن تسمية سجن (الفتح) فقد لجأت إلى بعض الأصدقاء ومنهم بعض القياديين من الضباط في أمن الدولة –سابقاً- وبدا السؤال بالنسبة إلى معظمهم غريباً ومريباً وتحفظوا بل امتنعوا عن الإجابة (مش وقته) إلا أن أحدهم وهو صديق طيب وقيادي حراكي معروف أخبرني: «قامت حكومة الثورة بعد الاستقلال بإطلاق مسمّيات إسلامية على بعض الشوارع والمعسكرات والمؤسسات الحكومية مثل معسكر طارق بن زياد ومعسكر صلاح الدين وشارع أبي عبيده الجراح الذي هو حي السعادة الآن بخور مكسر ومعسكر الفتح وهو في محيط القصر المدور

الرئاسي وسميت تلك المنطقة بكاملها من جولة الرئاسة حتى رامبو بالفتح. وفي الفتح منطقة تسمى «برسلي» ويقال معناها الرز بالصومالي وهذه المنطقة تقع تحت مستشفى رقم 7 الذي سمي بمستشفى باصهيب العسكري. أسفل الجبل مقلب قمامة يدعونه بالعامية «الشولة» وعلى أنقاض هذا المقلب بني سجن أمن الدولة وغلب عليه اسم (سجن الفتح). توجد حول المسجد مخازن الحبوب أو الغلال والطريق المؤدي إلى السجن غالباً ما يكون مزدحماً بسيارات النقل الكبيرة وأطفال يبيعون الخبز والشاي والماء للحمالين.. بني السجن بتصميم ألماني حينما كانت الاستخبارات الألمانية الشرقية تقيم علاقة مع أمن الدولة وتشرف على جميع مناشطها. افتتح السجن في بداية الثمانينات وفيه أُعدم وزير الخارجية محمد صالح مطيع وقيل إن «قُماطه» انتحر فيه وفي هذا السجن زُج بمحمد سعيد عبد الله (محسن) مؤسس أمن الدولة وجيء به مكبلاً من مقرّ عمله في السفارة اليمنية الجنوبية في المجر».

للعلم -والحديث للراوي الصديق عبد الكريم قاسم فرج- في «برسلي» عاش وترعرع الكابتن الدولي علي محسن مريسي والحكم الدولي في كرة القدم سعد خميس والحاج صالح العيسي. وتعتبر هذه المنطقة أحب بقاع الأرض إلى قلب صديقنا الراوي الذي عاش فيها طفولته وأجمل أيام شبابه -حسب قوله.

*****

إن حضور ثلاثة أشخاص في تلك الغرفة -غرفة مدير السجن- يجعلها خانقة فما بالكم لو كان العدد الذي حُشر فيها يتجاوز السبعة بما فيهم فاروق والحراس عند الباب والشبابيك الحديدية ونظراتهم النارية العدوانية تجاه فاروق ومن تجرؤوا

على زيارته، والصمت الذي ران ثقيلا ورصاصيّا حين شرع في الكتابة بعد أن فاجأ سجانيه بل فاجأ الجميع بطلب حزمة من الأوراق وقلمٍ، لافتاً إلى أن المشافهة ليست كافية وغير مجدية فهو يرى أنه من الأهمية بمكان أن يعرض تصوره ورؤيته كتابة.

- كيف حالك أخي منصور؟

سألني الأخ الكبير بعتاب وحنوّ عن أخيه الشقي الذي كان يقف مع (الطرف الآخر) وستظل أصداء سؤاله وتردداته تنهش نفسي الهشة وذاكرتي العميقة، وتجعلني أتلعثم بشعور وخيم بالتورط والمشاركة فيما حدث لفاروق ولغيره ولنفسي اللاهثة في استجماع ولملمة شتات ما حدث.

بكامل السخاء أطل علينا يومذاك وهاهو بعد 32 سنة يعاودني مصحوباً ومرفوقاً بباقة من أصدقائه ورفاقه من صنّاع الرأي ومنتجي المعرفة والأفكار والرؤى والسياسات وملامسي عبوة صناعة القرار في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وجلّهم أساتذة كباروأصدقاء أحباء:

أحمد سالم الحنكي مدير دار الهمداني للطباعة والنشر والإصدار، زكي بركات رئيس تحرير(الثوري)، أحمد عبد الرحمن بشر السكرتير الإعلامي للأمين العام للحزب، جمال الخطيب مدير عام إذاعة عدن، عبد الله شرف سعيد رئيس تحرير صحيفة 14 أكتوبر، عبد الرحمن بلجون مدير عام التلفزيون، إسماعيل شيباني رئيس تحرير مجلة الحارس ومدير الحكمة، فاروق رفعت مدير تحرير 14 أكتوبر، وتطول القائمة، وليس بالإمكان استكمالها لو اشتملت على أسماء كل الذين قتلوا من خارج دائرة النخبة الإعلامية المثقفة، القائدة لمنصات الرأي والإشهار والصوت والصورة التي تشكلت وتأهلت من

ربيع الصبا في المراكز والمعاهد والجامعات في الستينات ومطلع سبعينات القرن الماضي، وصُقلت في غمار معارك حرب التحرير قبل الاستقلال وفي غضونه وعلى أعتاب بناء الدولة الجديدة، وكانت خلاقة وسامقة حتى أن كل فرد فيها كان مدرسة في حدّ ذاته في ذلك السياق والزمن.

كانوا يجمعون أنواراً وأزهاراً ويتألقون بالشعر والأغنيات والأفكار الطازجة والأحلام الأرجوانية.

لقد كان الخسران عظيماً والفقدان جسيماً، ولا يعوض بأي حال من الأحوال وعلى ذلك يتكرر سؤال «يناير» بأفق تجاوزه والانفكاك من تلابيبه.. من هذه الزاوية فحسب سنردّ على من يقولون إن الكثيرين قتلوا وأخذوا معهم الرواة والرواية، الحكاية وشهودها، هل يعقل أن نستنطق الموتى؟

سنردّ بسؤال: أيعقل أن يكون القتيل بلا قاتل؟ ولمصلحة من يا ترى تبييض الشناعات والفظاعات وتعويم الجريمة وتبديد دماء كل «الشهداء» وتوزيعها بين قبائل مجهولة النسب والهوية وكل الرواة موتى.

دعونا نجتهد في سبر أغوار الطرق والشبكات التي أدت إلى يناير.

فاروق لم يعد ملكاً لأسرته، ولا لرفاقه ولا لحزبه، بل ملكاً يشترك فيه جلّ أبناء مدينته ووطنه، ويرون اليوم في بعض أقواله أثناء محاكمته بصراً وبصيرة لما سيحدث.

بالمناسبة تجدربنا الإشارة إلى أن رئيس المحكمة، وجل أعضاء هيئتها «الموقرة» هم أصدقاء ورفاق ولكن ذلك لم يمنعني من طرح المسألة على بساط النقد والتشريح.

فمحكمة «الطغمة» كانت كاريكاتورية هزلية، كما كانت المحكمة الأخرى «الزمرة» تنافسها هزلاً ومسخرة على أشلاء ودماء الضحايا، بل «شهداء التخلف» من الطرفين.

اللافت أن هيئة المحكمة -إذا أعدتم الاستماع إلى أشرطة المحاكمة- ركزت كثيراً على اتهام فاروق بـ«التنظير» وتقصدت توريطه بالاعتراف أنه اقترف «الكتابة» وكان رئيسياً في صياغة «ورقة العمل» و«خطة المؤامرة».. نعم لقد كانت التهمة الخطيرة والكبرى لفاروق هي: الكتابة.

وعليه، لا غرابة في أن كان المثقف هو المتهم رقم «1» وكان فاروق على رأس المتهمين، وكان هو ورفاقه وكل المثقفين في الحزب من «الطغمة» أو «الزمرة» على حد سواء شبيهين بالطرائد في مرمى القناصة والقتلة من أشاوس الجهل المسلح عندما ارتفعت النعال وانتكست وانكسرت الرؤوس: العقل.

من أعطى الضوء الأخضر أو البرتقالي لنافورة الدم والعنف، ومن فتح سبيل وصولنا إلى مرحلة القتل الثلاثي الأبعاد والنوايا، والألغام والأحزمة الناسفة والرصاص الكاتم للصوت والحلم والحرية، وإلى حقبة التوشح بالسواد والإغماء تحت الرايات السوداء.

كيف لنا ألاّ نسأل أنفسنا عن أحداث يناير التي كان فيها عدد القتلى أكثر من الجرحى بل كان القتلى بالآلاف والجرحى بالعشرات والمئات في جلجلة غير مسبوقة في تاريخ الحروب أريق فيها الدم الحرام لفاروق وغيره على أعتاب «تجربة» منكوبة.

كم يحتاج هذا الأمر من حفر عميق لسبر استهداف (المثقف) بالأمس واليوم والآن وهنا، استهداف المثقف «فاروق» الذي

أدرك مبكراً أن طريق الخلاص يبدأ بالمعرفة، من لحظة انغماسه في سنوات الجمر وحمله لفصيلة الدم «لا» وانتمائه المبكر إلى الشبيبة الأولى واكتسابه القدرة على منازلة الفقر بالثقافة والتقاط جمر «المعرفة» وتحليه بالمعنى المتوقد للكرامة والرجولة التي لم تنكسر لا في السجن ولا في ساحة الإعدام.

من يعيد اليوم الاستماع إلى تسجيلات المحاكمة سوف يستوقفه دون شك تكرار اتهام فاروق بـ«التنظير» وتلك مصيبة نكراء، فمعظم مصابنا ومصائبنا ترجع إلى غياب «التنظير» والتفكير وإلى فشلنا الثقافي بالدرجة الأولى وإلى التعويل على اشتراكية بلا اشتراكيين أو بلا ثقافة اشتراكية.

لم تدرك المحكمة ولم يكن بمقدورها أن تقفز فوق ظلها لتدرك بأن ابتلاءاتنا كلها تكمن في ضيق مساحة المعرفة في أذهان من اعتقدوا أنهم النخبة والطليعة، وتعلم أن الجهل هو سبب جميع أشكال المعاناة في العالم.

وعلى ذلك حقّ لنا أن نحدق طويلا في أمر انكشافنا وأن نفكّر ملياً في العوامل والأسباب التي أجبرتنا على الاستقالة من التاريخ والسياسة وعلى الخلط بين المستقبل والآخرة، والاتكاء على الانتماءات الأولية والتحتية وتحويلنا شيئا فشيئا إلى شراذم بشرية ممنوعة من المستقبل، نعترض على وجود بعضنا بعضا وننقسم على أنفسنا ونكابد المرارات والحسرات ونختنق بفضلات التاريخ، يراجع الواحد منا، كل يوم، سردية مولده ومسقط رأسه ويفاوض على شروط بقائه.

*****

ذات يوم، توجه القاضي في إحدى الجلسات إلى فاروق بسؤال مزدوج: كتبت «الورقة»؟ «ليش» كتبت؟ ابتسم ساخراً:

لأن خطي مليح؟!

كان يتمتع بسخرية لاذعة وروح سجالية عالية.

وفي يوم آخر سألتني «القيادة» وبعض الأصدقاء والرفاق عما قاله فاروق في السجن.

- لم يقل شيئاً، ولكنه خطير جداً، وقد تأكد لي بأنه متورط جداً؟

- بماذا؟

- بـ... الكتابة!

خلال أقل من نصف ساعة كتب بغزارة وتدفق، كتب كأن لم يكن أحد يراقبه أو ينظر إليه، كتب دون استجداء، دون أن يأبه لنظرات الحراس وضباط التحقيق ومدير السجن، ودون أن يشطب كلمة..

أكثر من عشرين صفحة خلال دقائق، وتحرجتُ من متابعة ما كان يطوي من صفحات، بل كتمتُ فضولي تجاه ذلك الرجل العنيد، الشديد الذي كان يكتب بسرعة البرق.

- ماذا كتب؟

- «القيادة» لم تكترث بماذا كتب، بقدر ما كانت مشغولة بمعرفة ماذا قال! قيادة ما قبل الكتابة.

(5)

الحزب يغرق في دمه

كانت الكتابة خياره وقراره واختياره، علامته وعنوانه وبيانه، رونقه وألقه وأفقه، معنى حياته وسرّ وجوده وقدره.

الكتابة كانت بعض ذلك أو جلّه بالنسبة إلى فاروق علي أحمد منذ التحاقه عام 1964 بحزب «اقرأ»: الاتحاد الشعبي الديمقراطي، فمنذ ارتباطه بهذا الحزب والكتاب يكاد لا يفارق يديه.

في 22 أكتوبر 1961 انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد الشعبي الديمقراطي الذي ترجع اختمارات بداياته إلى الحلقات الأولى التي تشكلت منذ مطلع خمسينات القرن الماضي عبر فريق من المثقفين الثوريين والكتاب والصِّحافيين بالدرجة الأولى، وفي صدارتهم «أسطورة التأسيس» لليسار اليمني الأستاذ عبد الله عبد الرزاق باذيب، حيث شرعوا يتعمقون في دراسة نظرية الاشتراكية العلمية ويروّجون لأفكارها عبر الكتابة في الصحف والمجلات وإلقاء المحاضرات والخطابات العلنية في النوادي والمنتديات والنقابات والحضور الفاعل والمؤثر في ساحة الفعل المدني والحقوقي في أوساط المثقفين الوطنيين.

وقد تمكن الصِّحافي والقائد السياسي والاجتماعي عبد الله باذيب، مع رفاقه من كسب مواقع متقدمة في النقابات، وإنشاء بعض المنظمات المدنية الاجتماعية المستقلة التي اضطلعت

بنشر الأفكار التقدمية كـ«ندوة أنصار الأدب الجديد» و«جبهة الكتّاب الأحرار» وانطلاقا من عام 1956م أصبح لليساريين بقيادة باذيب دور بارز ومميز في قيادة الحركة العمالية، تزامن مع الكتابات التي كانت تؤرق المستعمر البريطاني الذي استنفر أجهزته الاستخبارية والقمعية لملاحقة باذيب ورفاقه إلى الدرجة التي دفعته إلى عقد أول محاكمة سياسية في المستعمرة لمحاكمة باذيب بتهمة «إثارة الكراهية ضد الحكومة وإثارة الكراهية والفرقة بين طبقات وفئات السكان».

اللافت أن عبد الله باذيب الذي كان قارئاً وناقداً عميقاً لتاريخ بلاده ومتابعاً نهماً للأفكار التقدمية الإنسانية الجديدة فقد اعتمد التدرج أسلوباً في تبنيه وابتكاره أشكال الممارسة الفكرية والسياسية التي استوعبت ظروف وحساسيات بلاده، ولم يقبل أن يُستدرج إلى شطط الإشهار المتسرع عن حزب شيوعي على غرار ما فعل أقرانه من المؤسسين للأحزاب الشيوعية في المشرق العربي، فقد تفوق عليهم ، بمسافات من ضوء، بنضجه وصبره ومثابرته وتبصره، وكتب ذات يوم: «يجب على التجربة المرة لسائر البلدان العربية أن تكون درساً بالنسبة إلى اليمن» وراهن على التجذر في المجتمع والحفر في أغوار تاريخه لتوليد الأطر الفعالة المستجيبة للحظة التاريخية. ومن هنا كان توجهه إلى دعم إنشاء «شبيبة السلفي» تنظيماً شبابياً واجتماعيا ديمقراطياً، فالشباب كانوا في مركز اهتمامه ومن أولى أولوياته، وكان العمل الثقافي التنويري شغله الشاغل بكل ما يشتمل عليه من متابعات وقراءات ومحاضرات ومناقشات سياسية وفكرية.

فمنذ وقت مبكر راهن باذيب على الثقافة بوابةً ليس لأي تحديث اجتماعي وسياسي فحسب بل ولبناء الدولة المدنية، فهو

لم يكن يتصور قيام دولة مدنية في غياب مشروع ثقافي متفتح وحاضن للإبداع والمبدعين، وكان على دراية وإدراك عميقين بأن الكثير من «أنظمة الحكم» حفرت قبرها بنفسها لما خنقت المبدعين والمفكرين والمثقفين وحولت بلدانها إلى صحارٍ قاحلة.

لقد كان صاحب الرؤية والمشروع والجامع بين الفكر والإرادة والإدارة، يقول ما يفكر به، ويعمل بما يقوله، ولذلك كان استثنائياً في عالم نادراً ما تلتقي فيه الكلمات بالأفعال، وقد تعامل مع أدبيات الفكر الماركسي مباشرة ودون وسيط بلغته الإنجليزية، وفي وقت لاحق تعامل مع الاتحاد السوفياتي مباشرة، وكذلك مع الدول الاشتراكية ومع الأحزاب الشيوعية وحركات السلم والتحرر في العالم كله.

كان صاحب التزكية والتعريف المعتمد للآخرين من الملتحقين بحركة اليسار وحتى للراكبين على موجته دون أن يفتش في صدورهم، وهو من هندس ووضع حجر الأساس للبنية التحتية التربوية والثقافية في ج .ي.د.ش وتحت مظلته وخلال سنوات من الكدّ والسهر والآلام والمكابدات أرسل العشرات ثم المئات من الطلاب من حزبه ومن الأحزاب الأخرى ومن دون الحزبيين ومن الشمال والجنوب ، ومن الفقراء المحرومين الذين ما كان بمقدورهم تخطي أسوار عدن ولا تنفس أوكسيجين العلم والمعرفة إلى موسكو وبرلين وبودابست، وصوفيا وبراغ ووارسو وغير ذلك من عواصم الدنيا. كان أرسل عبد الله باذيب الشاهق بحجم دولة والمثير للزهو والعجب وراء الابتعاث السنوي المتزايد للطلاب ليدرسوا في كافة التخصصات، ووراء تشكيل المشهد التعليمي والثقافي التقدمي في اليمن الديمقراطية، والمتقدم على كافة دول الجوار الرجعي المتخلف.

وبإشرافه وقيادته تمّ تأسيس وتأهيل المؤسسات والمجلات الثقافية: المسرح الوطني، معهد الفنون الجميلة، مؤسسة السينما والمسرح، فرق الرقص، والغناء والموسيقى.. كان كبيراً وخفاقاً وخلاقاً وإنساناً رحباً متدفقاً بعطاء لا حدود له. ولولا باذيب لم يكن بمقدور المئات من أبناء «الفقراء والكادحين» امتلاك سلطة المعرفة والسياسة وأجنحة التحليق في فضاءات العلم والثقافة ورحاب الإنسانية، والإطلال على العالم المعاصر ودخول ردهاته من أوسع الأبواب.

وبغيابه المباغت الفاجع المحفوف بالكثير من الغموض والالتباس فقدت البلاد قامة سامقة، مرهوبة الجانب ومهابة العقل، طالما تجسدت فيها ملامح الكاريزما الملهمة. فقد أصبح من السهل على الهواة في ملاعب السياسة والطارئين على اليسار و«حركاته» أن يحشروا أنوفهم في شأن «التجربة الثورية» اليمنية ودهاليزها وأن يتبرعوا بتوصيفاتهم ووصفاتهم لـ«قيادة تاريخية» متهافتة في معظمها، وهشة وذات قابلية سريعة للتلف والاحتراق والانحسار باستعمار التنظيرات الشاطحة الوافدة من بيروت وغيرها من العواصم التي أوصدت أبوابها أمام أولئك اليساريين الضالين والجامحين الذين حجوا إلى بلاد «النجمةالحمراء» ووجدوا في عدن ضالتهم في تمرير وصفات جهنمية سحرية لم تخفق في تحويل عدن إلى «جنة للاشتراكية» في بضع سنوات فحسب بل أسهمت في تحويلها إلى «أرض محروقة» في عشرة أيام...

نعم ما كان لأولئك «الرفاق» أن يمروا في ظل وجود من كان يواجه الأعاصير نداً لها، بإرادة عنيدة وكبرياء وإحساس عريق بالكرامة.. ذلك بعض ما كان عليه عبد الله باذيب المدرسة

والأكاديمية الميدانية الرفيعة، المشعة التي تخرجت منها كوكبة متألقة من النجباء ومنهم الشاب فاروق علي أحمد الذي شكل فوزه بالشهادة الجامعية في القانون الدولي بتميز قيمة مضافة ومكملة لدراسته في فصول أكاديمية باذيب المفتوحة والممتدة والمتجددة بقدرات وطاقات ومؤهلات وتمثلات كان «الفاروق» من عناوينها.

*****

لم ينم «الفاروق» حتى الآن، ولم يعرف النوم طريقاً إليه ليلة 12 يناير1986م فهو لم ينقطع عن التواصل والتشاور وزيارة وفود الأحزاب الشيوعية العربية وفصائل حركات التحرر والثورة الفلسطينية التي وصلت إلى عدن بقصد التوسط لنزع الفتيل والحيلولة دون «انفجار الموقف» أو حتى لتأجيل الانفجار..

في فجريوم «المجزرة» حرص على توديع الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي الذي طالما عبر عن توجسه من «طريقة الرفاق اليمنيين في تبادل البطش»، واغتيل هو الآخر في بيروت صباح الثلاثاء 21 يونيو 2005 م عندما انفجرت سيارته بقنبلة ممغنطة وضعت تحت المقعد الأمامي الذي يجلس عليه بجوار سائقه!

وحرص على توديع القيادي السابق في الحزب الشيوعي اللبناني المفكر العربي المعروف الدكتور حسين مروة الذي كان في زيارة إلى عدن هدفت إلى وضع تصور لتحديث وتطوير النظام التعليمي في ج.ي.د.ش اغتيل هو الآخر بعد انقضاء عام وشهر حيث طالته أيْدٍ ظلامية غادرة ببضع رصاصات في 17فبراير1987م لتجهز عليه قبل أن يكمل الجزء الأخير من

مشروعه الفكري الموسوعي «النزعات المادية» حيث كانت ابنته تكتب ما يُملي، فقد أنهكه المرض والتعب، وضعف بصره فكانت تقوم بمهمة الطباعة والكتابة.

فجر13يناير1986م كان «الفاروق» في سباق مع الزمن ولعله كان الشاهد الملك على انقطاع أنفاس السياسة واحتضارها في عدن والمستمع الأول للتكتكات المؤذنة بساعة القيامة و«الانفجار الكبير».

*****

لم يتمكن جورج حاوي من التواصل المباشر مع الرئيس علي ناصر محمد بعد أن خرج من اجتماعه مع نائب الرئيس علي عنتر في الساعة 1.35، وقال إن «الاتصال جرى عبر شاب اسمه فاروق علي أحمد».

وجاء في حديث حاوي: «تفاقم الصراع مرة أخرى داخل الحزب الاشتراكي اليمني. تمت إدارة الصراع بصورة خاطئة، وحصل تجاذب بين المصالح الشخصية مع الحالة القبلية مضافاً إليها الطمع في السلطة. طلب منّا عبد الفتاح إسماعيل وعلي ناصر محمّد وعلي عنتر التوسط رسمياً فذهب الرفيق نديم عبد الصمد عديد المرات. كانوا يعتبروننا كما يعتبرون نايف حواتمة وجورج حبش حريصين على تجربتهم، بعض هذا الكلام كان صحيحاً وبعضه كان يهدف إلى كسب تبريرات وحلفاء.

اجتمعت مع عبد الفتاح إسماعيل في موسكو أكثر من مرة، وحاولت إقناعه بأن دوره في المصالحة مع علي ناصر محمّد دون الدخول طرفاً في الصراع داخل الحزب، وبالتحول إلى عمل عربي تحت شعار حركة ثورية عربية جديدة يكون هو واجهتها، وهو وريث حركة القوميين العرب وصاحب تجربة في السلطة وتفكير

ماركسي ومحترم عربياً. وقلت له إن الوجود خارج السلطة شهادة حسن سلوك عند المثقفين العرب.

كنت أعرف أن حالة النفي الاختياري أو الإجباري كانت صعبة على المناضلين. فقد تفاقمت التناقضات، علي ناصر محمّد ومعه مجموعة من شيوعيين سابقين أو بعثيين سابقين و... هذه الفئة كانت تدعو إلى تطوير الحزب لم تستطع التعامل مع حالة قبلية عادت تسيطر على الجيش والمناطق. ويضيف حاوي: «ذهبنا أنا ونديم عبد الصمد، وكان هناك حسين مروة –رحمه الله– في مهمة أخرى، هي وضع برنامج للمدارس والجامعات... اجتمعنا مع كل الأطراف ووجدنا أن الوضع شديد التوتر والصعوبة. واطلعنا على حالة الاستعداد المتبادلة التي كان كل طرف يتخذها ضدّ الآخر... وحين سأله غسان شربل، هل أبلغك علي عنتر أنه يريد قتل علي ناصر؟ نعم، كنت أحب علي عنتر كثيراً وكان يحبني ويعتبر نفسه عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني.

ذهبت وإياه أكثر من مرة إلى ليبيا لطلب مساعدات لليمن. وذهبت وإياه أكثر من مرة في زيارات عربية خصوصاً إلى سوريا. واعتقدت شخصياً أنّني أستطيع التأثير عليه. لكن الوضع كان في غاية التوتر وبات محتقناً في صورة غير عادية «وفيما أوضح حاوي أن اجتماع المكتب السياسي كان قد تقرر عقده يوم 13 يناير 1986م بعد تأجيله أكثر من مرة، فقد أشار إلى أنه بذل جهداً كبيراً لتأجيل ذلك الاجتماع خوفاً من حصول الانفجار، وإن علي ناصر محمّد وافق على التأجيل وكذلك عبد الفتاح إسماعيل الذي وافق على التأجيل مشترطاً موافقة علي عنتر الذي كان مستنفزاً –حسب حاوي– وبدأ كمن يقول: اهتموا بشؤونكم اللبنانية!

ويذكر حاوي أن علي عنتر قال: «بكرة إذا علي ناصر ما بيخضع للمكتب السياسي أقتله وأقتل نفسي» ومد يده إلى مسدسه. وتطرق إلى تفاصيل أخرى مضيفاً: «كرر علي عنتر أنّه يجب تصفية علي ناصر». وقال: بقينا حتى الواحدة و35 دقيقة وكان علي ناصر ينتظر مني اتصالاً عن تأجيل المكتب السياسي.

وجرى اتصال بيننا أبلغته فيه أن علي عنتر رفض كل شيء ورفض التأجيل وهو متصلب «لكن طوّل بالك» فقد جرى الاتصال عبر شاب اسمه فاروق علي أحمد أعدم فيما بعد.

ويختم حاوي أنه غادر مع نديم عبد الصمد صباح 13 يناير إلى دمشق ولدى وصولهما أُبْلِغا أن الحزب الاشتراكي غرق في دمه، وأن الجهود التي بذلاها لم تسفر عن نتيجة... «يومها اتهم المنتصرون في عدن الحزب الشيوعي اللبناني بتأجيج الصراع والانحياز إلى علي ناصر محمد»[1].

لا بدّ من الإشارة إلى أن حديث حاوي عن انفجار عدن كان بعد انقضاء عشرة أعوام وهو الحديث الأول عن ذلك الانفجار الذي كشف فيه أنه ما كان له أن يقوم بتلك الوساطة المرهقة إلا بدافع من توجسه ومعرفته بأنّ في «اليمن تقاليد غير سلمية لتبادل البطش».

كما أن الوسطاء من الأحزاب الشيوعية العربية وفصائل الثورة الفلسطينية قد بذلوا جهوداً حميدة وغير حميدة -أحياناً- وماراثونية تصيب المرء بالتشوش والحيرة، وقد انعكست مقارباتهم المتضاربة وخلافاتهم ونزاعاتهم وتطيراتهم ونرجسياتهم واستقطاباتهم على حالتنا البائسة في عدن، وألقت بتأثيراتها

1- راجع جريدة الوسط الصادرة عن «دار الحياة»، سلسلة يتذكر مع غسان شربل 24/ 6/ 1996م.

السالبة في الغالب على الوضع المتدهور والسيء من أساسه، في بلاد تخبطت يومذاك تحت وطأة تدخلات المتنازعين من «الرفاق» العرب وهاهي تترنح اليوم كطائر ذبيح تحت وطأة صراع النفوذ والسيطرة بين دول الجوار «الرجعية» في الجزيرة والخليج.

*****

من قبيل الرد والتنويع على حديث جورج حاوي لشربل، وما تضمنه من عرض لمسائل خلافية مع الأحزاب الشيوعية الأخرى حول عديد القضايا بما فيها الموقف من عدن، كتب القيادي البارز في الحزب الشيوعي العراقي الرفيق فخري كريم رئيس تحرير مجلة «النهج» سابقاً، ورئيس مؤسسة «المدى» للإعلام والإصدار وصحيفة «المدى» العراقية حالياً عن «الفاروق» و«التجربة اليمنية المغدورة»: «ربما بمحض الصدفة، كنت في عدن في نفس الفترة التي كان فيها الرفيق جورج حاوي عشية المأساة الدامية التي أغرقت الحزب الاشتراكي اليمني وتجربته بالدم والهزيمة.

ولقد قابلت القادة من الطرفين وتمنيت على من قابلت من الأصدقاء أن يساهموا في تهدئة الأوضاع وأن يحولوا دون تفجر الأحداث، وكنت أخفي الحقيقة عن الجميع عندما أنقل إلى كل طرف كلاماً إيجابيا عن الآخر وهو لا يصدق.

وأذكر آخر اتصال تلفوني لي من بيت الفقيد علي باذيب مع الرفيق علي ناصر محمد الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، في ساعة متأخرة من ليلة الأحداث الدامية، محاولاً طرح اقتراح للتهدئة، فطُلِبَ مني الامتناع عن الاسترسال على أن يرسل إلي الصديق الفقيد فاروق علي أحمد ليضعني في صورة التطورات، ويسمع ما عندي.

عند وصوله؛ طلب الانفراد معي في حديقة المنزل، وأبلغني أن الصدام حتمي لا محالة معززاً استنتاجه بما نقله إليه حاوي ليوصله إلى علي ناصر، «إن علي عنتر، حسب رواية حاوي، هدد بأنه سيقتل علي ناصر غداً في اجتماع المكتب السياسي وإن أحد الطرفين يجب أن يخرج من المعادلة»وقد ورد هذا في سيرة الرفيق جورج.

قبل يومين من المجزرة زرت الفقيد علي عنتر ونقلت إليه أن الثورة تتحمل أكثر من علي لقيادتها.

قال لي ببساطة: «أنتم العراقيون تحبوننا جميعاً، حتى إذا كنتم منحازين فكرياً لعلي ناصر، إلا أن الرفيق جورج للأسف يحرّض الآخرين علينا بأننا حثالة الرجعية» لن أنقل نص كلامه.

في هذا السياق؛ ومنعاً لأي التباس يهمني التأكيد على أن الحزب الشيوعي اللبناني كان حريصا دون أدنى شك على التجربة اليمنية، ولكن انشداد الرفيق جورج إلى أسلوبه في معالجة ما كان يتدخل فيه، كانت تصب أحيانًا لغير صالح القضية.

وهكذا ذهبت التجربة اليمنية ضحية الإسقاطات «الإرادوية» على عملية التغيير في البلاد وعدم نضوج مقدماتها.

فكانت ضحية الصراع المنفلت على السلطة بالمعايير القبلية والمناطقية... ضحية حسن نوايا قادة الحزب الاشتراكي بالخبرة التاريخية لأشقائهم ورفاقهم من قادة حركة القوميين العرب الفلسطينيين حيث حاول كل طرف في الحزب أن يستميل هؤلاء القادة إلى جانبه، وكم كان سهلاً أن يسمع كل منهم ما يعجبه ويثيره من بعض هؤلاء القادة».[1]

1- فخري كريم، جريدة الوسط الصادرة عن دار «الحياة» سلسلة يتذكر مع غسان شربل 14/ 10/ 1996م.

(6)
ربيع عدن

تزامن ميلاد «الفاروق» مطلع خمسينات القرن الماضي 5 ديسمبر 1952 بمدينة المعلا –عدن- مع ميلاد متجدد لمدينته «المعلا» وعدن بصفة عامة، ففي ذلك العقد شيدت أعمدة ومعالم عدن الجديدة، وانفتح فضاء السياسة ومجالها، وارتباطاً باشتداد القبضة الاستعمارية كشف الاستعمار البريطاني «البغيض» عن وجهه الإعماري وقد كان من شأن تحوُّل عدن إلى قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ومقر لمركز قيادة الشرق الأوسط وركيزة أساسية للدفاع البريطاني في هذه المنطقة أن يجد ترجمته بخطوات واسعة في مجال التشييد والإعمار والتشغيل.

وفي عام 1952م بدأت مصفاة عدن للنفط تنشأ بسرعة كبيرة في عدن الصغرى (البريقة) وبحلول 1954م كانت تصبّ النفط في البواخر، وفي محيط المصفاة كما في الضفة المقابلة (المعلا) شيدت مئات المساكن للعمال والموظفين، وفيما كان «الفاروق» يتهجى أولى الخطى كان وجه المدينة يتغير تماماً بل ووجه الحي الذي ولد فيه حيث تم ردم مساحة من البحر إلى حيث تقطن أسرته وتم شق الشارع الأكبر والأطول في (المعلا) -عدن Main Road بطول 2 كيلو متر وبُنِيَت على جانبيه أكثر من «10» عمارات على الطراز الأوروبي مكونة من عدة أدوار (لا تقل عن ثلاثة ولا تزيد عن سبعة أدوار) وقد أُنْجِزَت بشكل هندسي

منتظم التراص و شبيهٍ بأبنية العواصم والمدن الأوروبية واتسم تصميمها بدقة وتناسق خلابين، ونُفِّذَت بإشراف مهندسين بريطانيين ويومها كانت خاصة بالضباط والجنود البريطانيين.

لقد نمت (المعلا) بسرعة مدهشة وتوارت خيامها وأكواخها إلى خلفية غير مرئية وأواخر الخمسينات كانت تنافس (كريتر) في الحجم وتتفوق عليها حداثةً وعمراناً.

وابتداءً: «من عام 1950م فكر سكان عدن بالسياسة واتجهوا للنظر إلى مصائر الأماكن الأبعد بدلا من النظر إلى أماكن عملهم»[1]،وجاء ذلك إثر التنامي والانتشار الواسع للتعليم الحديث والخدمات الصحية والمستشفيات والكهرباء، والتوسع الكبير لعمل المصفاة جنبا إلى جنب مع الإيقاع المتسارع لنشاط الميناء الذي أصبح الأكثر نشاطاً في العالم بعد ميناء نيويورك.

وكما كان ميلاد السياسة في عدن بالمعنى الواسع والحداثي للكلمة في الخمسينات فقد اكتنف هذا العقد ميلاد النقابات الأحزاب السياسية، الصحافة، الراديو، الاتصالات والأندية الأهلية والاجتماعية الخيرية والثقافية، الموسيقى، الأغنية والفن التشكيلي والمكتبات والمسرح والسينما... إلخ.

وفي ذلك الزمن وهناك كان ربيع عدن.

وازدهرت عدن وازدهت بكامل أبهتها وهيلمانها وعنفوانها، وتجلت واحدةً من أهم بوابات العالم المفتوحة على استقبال رياحه وتياراته وتطوراته، وتجسمت مصباً لروافد التاريخ، ومركز جاذبية وتعايش وتثاقف وتلاقح وحوار الأعراق والأجناس والحضارات، وساحة انفتاح وتنوع وتعدد وتسامح، وواحةً

1 – راجع كتاب «عدن تحت الحكم البريطاني»، ر.ر.جافن، ترجمة محمد محسن محمد العمري.

لامتزاج الأسطوري بالغرائبي، ومرتعا للأساطير والحكايات وبوتقة لصهر الأفراد والجماعات وطبعهم بطابعها بما هي و«ذاكرة محرزة بالنسيان» وموطناً لتعدين (سكن) من يلوذ بها وبما هي منفى وملجأ ورحيل بلا عودة، وبحر وصخر تذيب ما عليها، وخلجان ووديان، ومعابد وكنائس، ومرسى ومرفأ ومقهى للرّاحة والأسمار والحكايات والمغامرات والأخبار والأحداث وورشة لصناعة الفرح وللتمرين على التمدن، وعنوان للثقافة وفضاء للسحر والتشكيل والمجاز، وعاصمة للضوء. (راجع كتاب أوراق فلكلوريات عدن، من إصدارات بيت الموروث الشعبي سبتمبر 2007).

وسط هذه المناخات وفي خضمها ولد «الفاروق» ولعبت سنوات التكوين الأولى في حياته وحياة أقرانه من أبناء الجيل المستحيل، دوراً حاسماً في تحديد مسار توجهاتهم وإطلاق صبواتهم وتطلعاتهم وأشواقهم، واعتناقهم قيم الحداثة والمدنية والتغيير، وتوقهم الحارق إلى إقامة الفردوس: «الاشتراكية» على الأرض. لقد تلازما وتزامنا وترعرعا وكبرا معاً، فاروق والمدينة في سنوات الزلزلة والجلجلة والوعود والمواعيد الكبرى، وبعد جلاء المستعمر في 30 نوفمبر 1967م كانت المدينة تختزن في جوفها أنفاس المدنية التي راحت تنكمش وتتقلص وتتلاشى بالتدريج تبعاً لموجات التزييف و«البدونة» التي تعاقبت على اكتساح المدينة حتى أفضت إلى انحسار تلك الأنفاس واختناقها إلى أن كان يوم الانفجار الكبير في 13 يناير 1986م الذي شكل علامة الساعة القيامية الشاهدة على احتضار المدينة والتمدن وتنكيس رايات ما تبقى من عقل، وانتصار لل«بروليتاريا» الرثة التي لعبت دور البطولة المسلحة في مسلسل انتقالنا من مهوى

«المنظمة القاعدية» إلى هاوية «تنظيم القاعدة» وما انجروينجر عنه حتى اليوم.

لقد ولد في ديسمبر 1952م وفي ديسمبر 1987م أصدر رئيس المحكمة الناطق باسم «الطغمة» الميليشياوية المنتصرة في الحزب الاشتراكي الحكم بإعدام فاروق علي أحمد المثقف وابن المدينة الذي كان المتهم الأول بما يستبطن حقيقة أن المدينة هي المتهم الأم، وحكم على فاروق بالإعدام بمجرد الاختلاف في وجهة النظر والرأي السياسي وليس لأنه قاد عصابة مسلحة، أو كان على رأس جماعة من الصقور.

كان المثقف والمدينة هما المتهمين والمستهدفين الأوليْن، وما بعد ذلك كان الفراغ المهول وما نشهده اليوم من خواء وعواء وعربدة الأشباح والمسوخ وانفلات طوفان العنف والخراب، وتجريف علامات ومعالم وذاكرة المدينة.

لقد رحل فاروق عن دنيانا وهو في مقتبل العطاء، ورحل معه المئات من أبناء الجيل المستحيل وانصرمت أكثر من 32 سنة على رحيلهم الفاجع دون أن تخضع كارثة 13 يناير لمختبر الفحص، ومبضع التشريح السريري وإن في مجرى تأكيد استحقاق جبر الضرر والسعي الجاد إلى ردّ الاعتبار للضحايا وتعويضهم وأهاليهم مادياً ورمزياً ومعنوياً، والاعتبار بما صار حتى لا يتكرر والأنكى أن هناك الكثير من التعامي والجحود والإنكار والنكران إلى الحد الذي أسهم في استمرار مفاعيل الكارثة وتجديد دوراتها وتكرارها بتمظهرات وتمثلات وعناوين أكثر بدائية وهمجية من تلك التي كانت مزَوَّقة ببهرجة ومساحيق الأيديولوجيا.

لا عتب، بالتأكيد على الزواحف الينايرية، ولكن اللوم على من يعتقد في إمكانية تعلُّم مهارات القفز العالي في متحف

الزواحف والديناصورات.. إن «كارثة يناير» جديرة بالقراءة الحيوية، الشابة، النقدية المتجددة، والمتحررة من أثقال وكوابيس واضطغانات الماضي الذي يبدو أنه لا يمضي أبداً.

ثمّة وجه آخر للكارثة وبالأحرى لما بعد الكارثة وهو الوجهُ المغْفَل والمنسيّ، المسكوت عنه، المعطل والمؤجل من دون أجل أو إشعار آخر وهو المدينة عدن وسؤالها: ترى من يرد عدن إليها؟ من يرد إليها بحرها، نوارسها، لقالقها، روحها وظلالها، صهاريجها، حدائقها وملاعبها، و«معبد الشمس» و«معبد الفرس» و«اليهود» و«معبد الهنود» و«النار» والكنيسة الإنجليكانية و«كنيسة القديس جوزيف»، «بيت رامبو»، «قاعة المهاتما غاندي»، «معبد الألوان»، و«مسجد البهرة»؟ من يرد المدينة إلى المدينة؟

بالتأكيد، لا يمكن التعويل على الزواحف والديناصورات الينايرية ولا على المنحدرين من صلب يناير وحَمَلَة ذات الجينات والفيروسات من ذئاب السطو والسلطة وجياع التاريخ وقوارض ألواح طين الأبجدية.

ولا يمكن التعويل على المضروبين بمس الحنين -النوستالجيا- إلى دولة «الخلافة» الاشتراكية أو «دولة الخلافة الراشدة» أو دولة «اتحاد إمارات الجنوب العربي» أو دولة «الوحلة اليمنية»!

لن تستعاد عدن المستحيلة، المتخيلة، بأية حذافير سابقة، وهي ليست في انتظار أصحاب السوابق. الأرجح أن عدن في انتظار تخليق الجيل المستحيل من أحشائها لإنجاز مهمة إعادة اكتشافها واختراعها وذلك ليس بغريب عليها.

(7)
«عقدة الناجي»

اختفت سيارة الجيب البيضاء الصغيرة التي حملت صاحبي الذي طالما أنقذني مرارا من الآخرين ومن نفسي، وآخر مرة أنقذني من حتف وشيك وقتل شبه مؤكد في اليوم الثالث من «أحداث 13 يناير 1986».

بعد أسبوع أو أكثر لمحته من شق «الطِربال» في الكرسي الخلفي لسيارة الجيب البيضاء بنفس القميص الأبيض المنقط بالأسود الذي كان يلبسه منذ اندلاع الأحداث، وعجزت عن عمل أي شيء لرد جميله.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي شاهدته فيها، وبعدها سمعت أنهم في البداية انتزعوه من الدار «دار الهمداني» ثم نقلوه إلى مقر جمارك «المعلا» ليحشر مع باقة من أفضل كفاءات البلاد في حقل إدارة الإعلام والثقافة وصناعة الرأي والفكر في شاحنة كبيرة نقلتهم إلى سجن في «حوطه لحج»، ثم إلى منطقه برية جبلية على طريق «ردفان» حيث كانت في انتظارهم كتيبة الإعدام الثأرية التي اصطحبت معها بعض أنجال القتلى «الأماجد» أو «الشهداء الاستراتيجيين» المثيرين للكثير من الريبة والتشوش والتوتر والحرب، لتمكينهم أي «الأنجال» من الأخذ بثأر الآباء وتعليمهم الرماية «النصع» على رؤوس وأجساد خيرة نخبة اليمن الديمقراطية من المثقفين، وقد تكتمت صحافتنا بعد أكثر من عام على أخبار ترددت بقوة عن ظهور جثث في أحد

الأودية، يبدو أن السيول جرفتها وطفحت بها إلى السطح بعد أن طمرت في مقابر جماعية مستعجلة ومرتجلة في تلك الشعاب والبراري والسفوح الوعرة والموحشة.

كان الأمر يحتاج إلى تحقيق استقصائي وهو مازال في حاجة إلى تحقيق استقصائي بمعايير مهنية وإن من قبيل رد القليل من الاعتبار والجميل لصاحبي المبجل والنبيل وغيره من الضحايا، فقد ولت مرحلة «لاصوت يعلو فوق صوت الحزب» ودخلت البلاد بعدها في سلسلة من الحروب المروعة والموسعة وصولا إلى مرحلة «لا صوت يعلو فوق صوت الحرب».

*****

بعد 53 عاماً يحكي الكاتب الجزائري الفرنسي جان نويل بانكرازي تفاصيل ما عاشه من خلال سرد جارح ومؤلم عن ذكريات الحرب وجراحها التي لا تندمل في روايته «الجبل».

اضطر بانكرازي إلى الخوض في رحلة مرهقة إلى شعاب ذاكرة قلقة، وإلى النبش في أعماق ذكريات طفولة معذبة رسمت مسار حياته إنساناً وكاتباً ولد في الجزائر واعترف بعد انقضاء 53 عاما أن تلك الحرب خلخلت كيانه وظلت تلاحقه كلعنة أبدية، وقد أقر بتورطه بمأساة الجبل و«برج بوعريريج» حيث بدأت فصول مأساة كان بطلها طفل في الثامنة ولد بقرية صغيرة تدعى «سطيف» في 12 ابريل 1949في الجزائر.

«تنطلق الرواية في سردها من لحظة مابعد ظهيرة يوم هادئ من شهر يونيو، حينما توقفت الهجمات قليلا، لحظة من السلام..كان طفل صغير يلعب مع أصدقائه في ساحة المطحنة، ثم صعدوا إلى خلفية الشاحنة، سعداء واثقين مبتهجين لأن السائق عرض عليهم اصطحابهم إلى هناك، حيث الجبل الذي

كان وجهة محظورة».

وكانوا يعتقدون أن الجبل مليء بوديان الجعران والكنوز المدفونة والمحاربين». لكنه تخلف عنهم لأنه رفض اقتراح السائق واكتفى بمشاهدة رفاقه الستة الصغار يرحلون وهم يجلسون في خلفية الشاحنة وحيدا وسط الطاحونة الشاغرة من العمال ساعة القيلولة، مكث ينتظر طويلا جدا، حتى المساء، حينما هبت رياح باردة وجليدية من جبل الأوراس، في هذا الجبل ذي الصخور السوداء عثروا على الأطفال الستة مقتولين.

بعد ذلك تعالى الصراخ والبكاء والحنق المكتوم، وأعلن استقلال الجزائر، فكان على «الأقدام السوداء» اسم يطلق على «المستعمر الفرنسي» أن يعودوا إلى فرنسا.

حياة جديدة، كانت تنتظر أولئك المهاجرين الصغار رغما عنهم إذ كان يجب عليهم أن يقاوموا نظرة العداء التي تحاصرهم.

هل عادوا إلى أوطانهم، أم حلوا بالمنافي؟

بالنسبة إلى الراوي بانكرازي كان ينتابه شعور بالذنب والندم لأنه ترك رفاقه في ذلك اليوم يمضون إلى حتفهم من دونه، يحسّ بالحزن الجسيم والفشل والعار لكونه الناجي الوحيد من تلك المأساة.

أراد المؤلف أن يزيح عن صدره عبئا ثقيلا رزح تحت تأثيره سنوات. «يجب أن أحكي هذه الواقعة التراجيدية التي كنت شاهدا عليها عندما كنت طفلا».

كان يرهق نفسه كثيرا في محاولات مضنية لاستعادة روحه من براثن النسيان محاولا التطهر ومداواة جرح لن يندمل أبداً وكمتسلق للجبال صعد إلى الماضي في الجزائر للبحث عن

الذاكرة الجريحة والألم الداخلي، والشعور بالذنب، لمحو هذا الوعي المضني، الذي بقي يجتره عقوداً كما يجتر عادة الناجون من المأساة والعار ذكرياتهم موبخين أنفسهم لأنهم تشبثوا بالحياة بينما الآخرون لقوا حتفهم.

وكتب أصداء الماضي المثخن بالأخاديد والمنعرجات والانكسارات، وسرد الأرض المحبوبة الضائعة، والمنفى الإجباري، والاستسلام لحياة مشروطة بمحو الماضي، والذكريات المحظورة التي تحولت إلى حنين ملعون.

قضى بانكرازي السنوات العشر الأولى من حياته في الجزائر ويمكن القول بأن جلّ سنوات طفولته كانت في الحرب، وكان لذلك تأثير حاسم على حياته حتى الآن.

بعد استقلال الجزائر في 1962 رحل إلى فرنسا وتعلم وكبر وكتب عديد الروايات عن الجزائر وفي رواية «الجبل» الصادرة في فرنسا 2012 والمترجمة في نسختها العربية في أبريل 2018 واجه جان نويل بانكرازي ذاكرته الجريحة بعد أن كتمها مدةً طويلة وخرجت إلى النور مأساة الأصدقاء الأطفال الأبطال الستة الذين قتلوا في الجبل.

لم تكن رواية «الجبل» هي الأخيرة في درب حفرياته السردية الموجعة، فقد عاد إلى الجزائر، عودة فعلية غير متوقعة، ليكتب روايته الأخيرة «أردت أن أعبر لهم عن حبي» وهي رواية تؤرخ لعودته إلى الجزائر، وتكمل سلسلة رواياته عن الجزائر التي توجها باعتراف يؤكد فيه أن روايته الأخيرة كانت صدى لشهادة دفينة في أعماقه عن حبه للشعب الجزائري، ربما هي الأخيرة. يقول بانكرازي: «تعبت من الذاكرة والحنين، وأشباح الماضي، تعبت من العودة إلى الدوافع نفسها، والمشاعر ذاتها، والوجوه

عينها، والمناظر الطبيعية كلها. أنا مشبع بما عشته وواجهته، وجابهته ولديّ الآن رغبة واحدة فقط: النسيان».

وكما لو أن هذه العودة إلى الجزائر بعد 53 عاما من الانفصال، أصبحت ضرورية لإغلاق حلقة من حلقات حياته»[1].

*****

يحذرنا بعض من نشاطرهم الألم والمأساة والقلم، ونتماهى معهم ونتناهى إليهم تراجيديا من الوقوع في براثن «عقده الناجي» أي الشعور بالذنب الذي يتملك من نجا من محنه لم ينج منها غيره، وهناك من نبه إلى محنة «الإصابة بالسلامة» بمعنى أنك سلمت بينما لم يسلم كثيرون، مازال عددهم يتزايد ما يهدّك ويرجّك ويدوّخك في كل حين.

من جانبه ينصح الكاتب الأشهر والأكثر تجذراً في تفاصيل ومتواليات التغريبة السورية «ياسين الحاج صالح» بمقاومة الاستسلام للإصابة بـ«عقدة الناجي» مفصحاً عن قناعته بأن لها أثرين مخرّبين -على الأقل-، الأول أنها قد تدفع الناجي إلى وقف الزمن عند نجاته، أي خروجه من البلد في حالتنا، وتالياً عدم تبين تغير الأوضاع وشروط الصراع وضرورة إصلاح الأدوات ويقول:

«... أظن أني أعرف أمثلة لناجين من جولة صراعنا الأقدم، لا يكفون عن خوض حرب سابقة لم يخوضوها وقت كان يجب خوضها» ولكن.. «بعد أن تغير كل شيء، فلا يكون لخوضها المعنى ذاته، ولا يكون لها الموقع التحرري ذاته. يعطون الانطباع بالقدم والأثرية، مصير أرجو أن أتجنبه».

1- راجع سلسله إبداعات عالمية أبريل 2018 روايتان: السيدة أرنول، والجبل لجان نويل بانكرازي، ترجمه وتقديم سعيد بوكرامي.

أما الأثر الثاني لـ«عقدة الناجي» -حسب صالح- فهو توقف القدرة على القتال في الشروط الجديدة للجوء، واستهلاك الطاقة في التشكي والتذمر، وفي لوم النفس والغير ويقول: أحاول أن أقاوم الشعور بالذنب، المتولد عن الإصابة بالسلامة كي أستطيع أن أستمر في القتال. أظن أن أكثر ما يدمر القدرة على القتال هو الوقوع في أسر الشعور بالذنب، الذي هو الأقل ملاءمة كي نكون عونا لمن لم يصابوا بما أصبنا به من سلامة، أو من حالهم أسوأ من حالنا. ليس الأمر سهلا؛ هو أقرب إلى اشتباك دائم، يتجدد كل يوم ولا نكسب فيه المعركة أبدا، لكن نستمر في خوضها».

وتتمحور جلّ هواجس هذا الكاتب وهو أكثر من عرفت وتابعت الخط التصاعدي لمأساته المتطاولة وآلامه عبر رسائله لرفيقته وزميلته وزوجته «سميرة الخليل» المختطفة منذ أربع سنوات، وانشغلت لاهثا بملاحقة ما ينحت من تعاليق وأفكار بمطرقة نقدية شديدة الأثر والفاعلية.. هذا الكاتب المثخن بجراحات السجن الذي التهم كل سنوات شبابه وربيع عمره «17 سنة» والمثخن بفقدان أحبته وإخوانه ورفاقه واندثارودمار بيته ومدينته «الرقة» وبلاده وشتات ما تبقى من أهله في المنافي واختفاء من علق منهم في أقبية السجون والمقابر..تتمحوركل هواجسه وتتركز في: «أن تصون نفسك، وأن تصون في نفسك قضيتك وأن تصون كرامتك».

*****

«الحارس في حقل الشوفان» رواية أمريكية كتبها ج.د. سالنجر 1951 وتوقف بعدها عن ممارسة الكتابة الروائية، وقد أصبحت هذه الرواية جزءا أساسياً من مناهج المدارس الثانوية

والجامعة في البلاد الناطقة بالإنكليزية، كما تمت ترجمتها إلى أغلب لغات العالم، تباع منها 250 ألف نسخة سنويا بأرباح تتجاوز الخمسة والستين مليون دولار.

بطل الرواية هولدنكولفيلد أصبح نموذج المراهق المتمرد على مجتمعه، يزدري هذا المجتمع ويرى أن أفراده جميعا غارقون في نوع من الزيف والغباء.

ذات يوم اتجه الشاب جون هنيكلي نحو عضو فرقة البيتلز جون ليون وأطلق عليه خمس رصاصات من الخلف، كان يومئذ يحمل في يده الثانية نسخة من رواية «الحارس في حقل الشوفان» وعندما خرّ «ليون» صريعا، جلس الشاب في مسرح الجريمة، يعيد قراءة الرواية في انتظار الشرطة ولاحقاً أثناء المحاكمة كان يرفع الرواية ويقول: «هذه حجّتي».

وفي يوم آخر حاول شاب أن يغتال الرئيس الأمريكي رونالد ريجان وقد وجدت في الغرفة التي كان يسكنها نسخة من رواية «الحارس في حقل الشوفان».

اختيرت الرواية بواسطة مجلة التايم ضمن أفضل 100 رواية مكتوبة باللغة الانكليزية من عام 1923 إلى عام 2005.

«الحارس في حقل الشوفان» عنوان وردي حالم لرواية غاضبة ثائرة على الزيف والخداع الذي يختلقه ويتنفسه البشر.

هذه السنة اقترحت عليّ صغيرتي مريم «14 سنة» أن أقرأ رواية ساحرة أسرتها وخطفت لبّها وقرأتها دفعة واحدة ذات يوم وليلة وهي بعيدة عني وحين سألتها عن عنوان الرواية أجابت: «الحارس في حقل الشوفان».

يا إلهي، كما لو أخبرتني عن العثور على صديق حميم كنت

افتقدته كثيرا ومكثت أبحث عنه أكثر من ثلاثة عقود وثلاثة أعوام دون جدوى.

رحت أحملق في الغلاف الداخلي غير مصدق أن «دار المدى» قد أصدرت منها الطبعة الأولى عام 2007 والثانية 2015.

علّق البعض بأن «دار المدى» قامت بإعادة نشر الترجمة العربية التي وضعها الروائي الأردني غالب هلسا قبل ثلاثين عاما دون إشارة إلى صاحب السبق في تبني نشرها والاحتفاء بالأديب الروائي التقدمي والمترجم المبدع غالب هلسا واستضافته في عدن عاصمة ج.ي.د.ش.

«الحارس في حقل الشوفان» وغيرها من عيون وأمهات وجواهر الأدب والفكر والفن والتاريخ وعشرات الإصدارات المميزة للمراجع والأصول والروايات كانت وليدة الإرادة والروح القيادية الثقافية الجسورة والمتوثبة للإنسان النبيل والجميل والرجل المشروع الراحل العزيز الشهيد أحمد سالم محمد «الحنكي» الذي استضاف الروائي الكبير غالب هلسا في عدن واحتفى بمنجزه الإبداعي والفكري وتبنى ترجمة وإصدار الرواية المذكورة قبل أن تولد في «دار المدى».. إلى جانب هلسا استضاف «الحنكي» البرتو مورافيا والشاعر الكبير سعدي يوسف والكثير من الأسماء والقامات الإبداعية اليمنية والعربية والعالمية وفي عهده شهدت عدن ربيع الكتاب عبر سنوات النصف الأول من ثمانينات القرن الماضي القصيرة، الكثيفة، الغزيرة بالمنتج الإبداعي حيث تمكن «دار الهمداني» بإشراف وإدارة هذا الرجل الفذ من مضاهاة ومنافسة دور النشر في بيروت والقاهرة بل والتفوق عليها بأكثر من سبق وخبطة مذهلة على غرار «الحارس في حقل الشوفان» ولا يتسع المجال لعرض فهرس كامل بإصدارات «دار الهمداني»

التي تألقت وأشرقت شمس معارفه وأنواره في سماء عدن وفي حقل إنتاج المعرفة عموما والاحتفاء بالمبدعين من كافة الجهات اليمنية بضرب من الاختراق العملاق لحواجز وبراميل التشطير، والتجسير المتين للأواصر بين اليمنيين، بالتلازم مع الاحتفاء بالمبدعين عبر قارات الإنسانية.

كان الشاعر الكبير سعدي يوسف من المستشارين العاملين إلى جانب «الحنكي» وكان رضا الضاهر وعبد المنعم الأعسم وعبد الكريم كاصد وعبد جعفر وسلام عبود وطه حيدر ورشيد الخيون وجمعة الحلفي ونمير العاني وزكي عمر والعشرات من الروائيين والشعراء والكتاب ومن الضيوف والمرتادين والحواريين لـ«الحنكي» وعدن. كان الطموح يلامس السماء بجدارة.

كان أحمد سالم الحنكي مثقفا نادرا، مشروعا متعدد الأبعاد والضفاف، وشخصا يتمتع بضمير حي وخصوبة متدفقة بالعطاء الإنساني، وأتذكر وأقر بأنه لم يكن بمقدوري أن أتهجى خطواتي الأولى في عتبات «صاحبة الجلالة» الصحافة لولا إسناده ودعمه وتشجيعه، وبفضله توظفت بصحيفة أكتوبر بدرجة قيادية من أول وهلة وأعفيت من الخدمة العسكرية الإجبارية وحصلت على دورات مكثفة، وأسفار وكتب وموسيقى ومحبة و... وفي اليوم الثالث من مجزرة «يناير» خلصني بشهامة من براثن قتلة محترفين لا يرحمون وكلف أحد الأصدقاء، مازال على قيد الإقامة في التواهي، بتوصيلي إلى مكان آمن، وبعد بضعة أيام وشى به أحد الذين تمتعوا برعايته ودعمه، إلى جمارك المعلا ثم إلى لحج ثم إلى حلق مفرزة الإعدام البربرية العمياء.

بعد انقضاء أشهر على «مطحنة الرؤوس» سارعنا إلى ارتكاب مجزرة نكراء بعقد مؤتمر لمنظمة الصحافيين اليمنيين خرج

بقرارات تستنكر وتدين رفاقنا الضحايا القتلى «الشهداء» الذي كانوا من أعلام التنوير والاستنارة ورجمناهم بحجارة التخوين و«المؤامرة»!

بعد انقضاء أكثر من عام على صفقة «الوحدة الفورية» المبرمة في نفق بين سالم البيض وعلي صالح كتبت بمرارة ساخرة عن ذلك المؤتمر المسخرة، وعرجت فيه على ذكر اسم صديقي وأخي وأستاذي أحمد سالم الحنكي، وفي ذات المساء هاتفني أحدهم ليذكرني بدور الخبل في التاريخ حين ألمح إلى أن كتابتي تلك قد تجر إلى «شق وحدة الحزب» الذي كان قد انقسم وتشظى بفعل تكالب قياداته على مغانم السلطة وأسلابها ولأسباب أخرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

لقد لمحت صاحبي من شق «الطِربال» وهو في قبضة القتلة ولم أستطع إنجاده كما فعل معي، ولم أكتب اعتذاري واعترافي لأتخفف من وزر تنوء بحمله جبال الجليد والحديد، ولم أهتد إلى سبيل التخفف أو «التطهر» بسهولة، ولعل الأمر يحتاج إلى مشقة كبيرة وإلى الكثير من الاستغراق والانهماك والاشتغال بقراءة الكثير من التجارب المماثلة، المؤلمة والملهمة حتى نكتسب بعض لياقة المقاومة لـ«الإصابة بالسلامة» ولـ«عقدة الناجي» ياسين الحاج و«الشعور بذنب» بانكرازي.

(8)
صراع عار

«في اليوم الخامس من الفوضى العظيمة قتل عبد الفتاح إسماعيل غدرا على يد واحد من أعضاء فريقه المعارض. الأمر الذي يؤكد حقيقة واحدة، هي أن الصراع من أجل السلطة والنفوذ كان صراعا عارياً تماماً من أية أغطية أيديولوجية أو سياسية. وبعبارة مباشرة (وعارية أيضاً) من أجل مصالح ضيقة للغاية: شخصية وقبلية لا علاقة لها لا بيمين رجعي ولا يسار انتهازي. فقد قتل عبد الفتاح إسماعيل (شمالي الأصل، ومديني المنشأ والثقافة) لأنه كان يشكل بالنسبة إلى قاتليه زائدة إيديولوجية ورمزا واسع الظلال إلى درجة سوف لن تسمح -إذا ما بقيت حياة- ببروز شخصية أخرى تنافسه. وقد كان قتله ضروريا لتظل أبواب التنافس الدموي مفتوحة أمام الجيل التالي لجيل «القادة التاريخيين للجبهة القومية».

وبعد أن روى الكاتب العراقي على الصراف تفاصيل ما جرى للرجل الذي قرأ بيان استقلال دولة الجنوب 30 نوفمبر وكان أول رئيس لمجلس الشعب الأعلى والأمين العام للجبهة القومية والمؤسس الأبرز للحزب الاشتراكي الشهيد عبد الفتاح إسماعيل.. وليس ثمة في معجمنا الأخلاقي أفضل من صفة الشهيد للإشارة إلى المقتول غيلة. عاد للتأكيد: «ويمكن القول إن مقتل عبد الفتاح إسماعيل على يد واحد من أنصاره ومحازبيه، كان نوعا من تأكيد مبكر على أن لهذا السياق الدموي منطقاً خاصاً به

وآليات داخلية أقوى من أية أمان، فالمشكلة لم تكن في الأصل مشكلة صراع بين تيارين أو أكثر، لا يجدان سبيلاً لتسوية أو حل خلافاتهما يقوم على أساس مبادئ الايديولوجيا نفسها التي يتخذانها معا، محوراً وغطاءً مرجعيّا لنشاطاتهما ومواقفهما بل في عوامل وتأثيرات أخرى كان يجب –على الدوام- قراءتها في المجتمع لا في السياسة، وفي الاقتصاد أكثر مما في الإيديولوجيا، وفي العلاقات الإقليمية والدولية المحيطة، لا في العلاقات بين تيارات وقوى الحزب الاشتراكي نفسه».

ويرفض الصرّاف الصيغ التبسيطية والاختزالية والتمويه الأيديولوجي، مشيرا إلى أن الحزب الذي نشأ متجاوزا واقعه والواقع البدائي الذي كان لابد من أن يعكس صورته فيه، انتهى إلى قبائل ممزقة بين عدة ولاءات شخصية ومناطقية، لا تجتمع في إطار تسوية ما إلا لتفترق من جديد، ولترسم بذلك صورة حقيقية لواقع التفتت الاجتماعي القائم، والأصل أن الكتل الاجتماعية لم تنصهر بما فيه الكفاية بعد لتتشكل منها قوى اجتماعية متجانسة نسبياً يكون لها أو لكل منها دور في تنظيم الحياة وبناء المستقبل. وليست هذه حالة يمنية خاصة، بقدر ما هي سمة لكل مجتمع متخلف. فالقبائل والمناطق هنا يمكن أن تظهر طوائف ومناطق ومذاهب وشيعاً هنا وهناك.[1]

*****

اندلعت في 28 يناير 2018 مواجهات مسلحة عنيفة ودامية في مدينة عدن ومعظم مديرياتها، استخدمت فيها الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، وانتشرت الدبابات والمدرعات

1- راجع كتاب «اليمن الجنوبي- الحياة السياسية من الاستعمار إلى الوحدة»، علي الصراف.

في الشوارع، والقناصة على أسطح العمارات وخلال أكثر من 24 ساعة سقط العشرات ما بين قتيل وجريح وتلاطمت في الأذهان والذاكرات أحداث المجزرة المروعة التي كانت عدن مسرحها في 13 يناير 1986.

تعليقا على هذه النسخة المكررة من حرب «يناير» المدمرة كتب الأمين العام لحزب التجمع الوحدوي اليمني د. عبد الله عوبل-والذي سجن عقب مذبحة 13 يناير 1986 أكثر من عام ونصف-: «يتعلم الناس من التجارب المرة والمؤلمة حتى لا تتكرر، فلقد قلنا إن شعار التسامح والتصالح كان كافياً لتجاوز أحداث لتجاوز أحداث يناير 1986 المدمرة، لكن فوجئ الجنوبيون في يناير 2018 بأحداث طحنت خلال 24 ساعة فقط ثلاثمائة شخص بين قتيل وجريح، وأتمنى ألا يكون هذا الرقم صحيحاً، في حرب لا معنى ولا هدف إنساني ولا أخلاقي لها».

وأضاف في صفحته على الفيسبوك: «تختلف أحداث يناير 2018 عن يناير 1986، فقد توقفت أحداث يناير في أسبوع، بينما استمرت تداعياتها لفترة أطول حتى حصدت عشرة ألف قتيل»، وأحداث 2018 لا تقل فداحة. فإذا كان قد راح ضحيتها هذا العدد خلال 24 ساعة، ترى كم كان سيكون عدد القتلى إذا استمرت أسبوعا. إنها كارثة بكل المعايير».

ويضيف: «لذلك نحن نعيد هذه الذكريات المؤلمة ليتعظ أصحاب الرؤوس الحامية، لأن الذين يشعرون أن القوة تقرب الهدف، بالعكس مهما كانت قوة أي طرف، فإنه ينتصر مؤقتا فقط. كل الحروب التي خاضها الجنوبيون لم تحلّ مشكلة، بل كانت تؤسس لحرب جديدة. منذ حرب 1967 بين الجبهة

القومية وجبهة التحرير حتى يناير 2018».[1]

*****

اكتوى البروفيسور في علوم الكمبيوتر بفرنسا والروائي المعروف ابن عدن حبيب سروري بنار 13 يناير 1986 وقد لاذ -عند انفجار الأحداث- بقبو تحت الأرض بمدينة كريتر لمدة عشرة أيام استعاد تلك الفاجعة مطلع هذا العام متطرقا إلى حالة بلاده التي لم تعد غير أرخبيل قطاعات للميليشيات وقال: «عدن مثلاً؛ يتقاسمها القراصنة والسلفيون ويعبث بها عساكر التحالف العربي، ومن يدور في فلكهم من الميليشيات والقوى المحلية».

ورد ذلك في سياق موضوع له نشر في موقع «الضفة الثالثة» ونشره موقع «رابطة الكتاب السوريين» استعرض فيه وقائع مأساة 13 يناير 1986 التي كان شاهداً عليها، وخلص إلى سؤال جوهري: لماذا لا ندرس كل هذه الحروب معاً، نحللها طويلاً، كظاهرة واحدة نستخلص عبرها بدلاً من نسيان كل حرب سابقة لتبدأ حرب أسرع من أختها السابقة، وأطول وأشد فتكاً مما سبقها من الحروب.

وقال: كشفت الحرب الوجه القبلي والمناطقي القبيح لمن لبسوا قناع الماركسية. 13 يناير كانت مذبحة، نهاية شيء ما، حلم ما، إلى الأبد: فاتحة خراب جذري، أسوأ وأشنع مما سبقه، ويزداد إلى الآن يوما بعد يوم.

ويضيف: أنهار دماء سالت خلالها في كل أحياء عدن، 13 ألف قتيل خلال عشرة أيام. ليس ذلك الأهم ربما، الأهم والأبشع:

---

1 – مقطع من ذكريات د. عوبل في سجن أمن الدولة بزنجبار مع الشهيد فاروق علي أحمد.

كيف حدثت هذه الفظاعات؟ وكيف مرت تلك الأيام؟ وماذا تركت بعد ذلك من تداعيات وعواقب حتى اليوم؟

*****

الكاتب العراقي عبد المنعم الأعسم أجبر على الرحيل قسرا من عدن بعد أحداث 13 يناير 1986 كغيره من مئات الشيوعيين العراقيين والخبراء الروس والكوبيين والجاليات الأجنبية، حيث رست في اليوم الثالث من الأحداث فرقاطة روسية ضخمة على ساحل «أبين» تكفلت بنقلهم إلى الخارج، بعد أن فرض السوفييت على المتقاتلين هدنة إجبارية وألزموهم بعقد اجتماع بمقر سفارة موسكو بعدن، والإعلان عن وقف إطلاق النار، وتمويه ذلك بدعوة الموظفين للعودة إلى أعمالهم، وفيما بعد تكشف الأمر عن حقيقة مفادها أن السوفييت حرصوا على إخلاء أعضاء السلك الدبلوماسي الروسي والأجنبي وجاليتهم الكبيرة وخبرائهم العسكريين والسياسيين، يصل عددهم إلى 500 فيما يصل عدد الخبراء الكوبيين إلى 400. وفي ذلك اليوم تم إجلاء معظم سكان مديرية «خورمكسر» إلى كريتر بأفواج جماعية راجلة لن تمّحي صورتها من أذهان من كانوا حينها في مقتبل الصبا.

عبد المنعم الأعسم تطرق في مقالة له نشرتها صحيفة «طريق الشعب» الناطقة باسم الحزب الشيوعي العراقي مطلع هذا العام 2018 إلى الحرب المستعرة في اليمن حالياً مستدعياً رسالة لـ(فريدريك إنجلز) كتبها لصديقه (كارل ماركس) منذ ما يزيد عن مائة وخمسين عاماً، وقال: تنطلق الأزمات في اليمن من نقطة غامضة لا تلبث أن تشغل العالم بوصفها قدراً وكابوساً، لكأنه الهدهد مازال يخاطب سليمان حتى اليوم «جئتك من سبأٍ بخبر

يقين» ومعلوم أن (فريدريك إنجلز) كتب لصديقه (ماركس) يومها إنه كان «يكفي أن تشب حرب واحدة حتى يتم إخلاء البلد من سكانه» ووصف ما يحدث من اضطرابات غامضة بالقول: «إن تدميراً مباشرا وعنيفاً يجري إلى درجة لا يمكن تفسيرها إلا بالغزو الحبشي».

وصف الصديق الشاعر عبد الكريم كاصد -الذي أجبر على الرحيل من عدن بعد 13 يناير 1986- الأجواء التي خيمت على عدن بالقول: «كان للحظة في عدن ثقل الأبدية. لحظة تمتد حتى تغمر كل شيء بضجرها. في فوّهة هذا البركان التي اسمها «عدن» حيث سواد قبائل الغربان تلطخ خضرة الأشجار في الساحات والطرق كأننا في عالم خرافي. الفوضى اللانهائية للتاريخ. زمن لا يتقدم إلا لكي يرتد، ولا شيء ينجز أبداً».

(٩)

ثقافة الإنكار

بالنظر إلى ما لمست من تفاعل إيجابي مع ما كنت أنشر في صفحتي بالفيسبوك تواصلت مع عديد الأصدقاء الذين سجنوا أو مثلوا أمام المحكمة الصورية بعد كارثة 13 يناير، ومع أصدقاء آخرين من الطرف المنتصر بـ «الحسم العسكري» ووعدوني بكتابة شهاداتهم ورواياتهم. وفي البداية تفاعلوا مع الفكرة بحماسة واستجابوا، إلا أنهم ترددوا بعد ذلك وتراجعوا بذريعة «مش وقته» وأن «المرحلة دقيقة وحساسة والمنعطف خطير» معبرين عن خشيتهم من أن يضعهم ذلك تحت طائلة الاتهام بـ«إثارة الفتنة» و«نكش» المواجع، اعتذر بعضهم عن وعده، وانقطع البعض الآخر عن التواصل معي نهائياً، ما آثار أسفي وندمي وحنقي تجاه أصدقاء ليس ثمة ما يعفيهم عن البوح بما يسهم في تعافيهم ورد الاعتبار لشخوصهم ولذاكرة البلاد الجريحة.

حصل ذلك رغم أني حرصت على وضعهم في صورة ما أردت وما قصدت في ضوء ما نشهد من حرب مفتوحة تداخلت فيها كل الحروب وأعادت التذكير بيناير 1986 والحروب السابقة للاستقلال والتالية وحرب الملكية والجمهورية، وكدت أعيد عليهم ما قرأت ذات يوم لكاتب لا أتذكر اسمه: «يا لها من فكرة جهنمية ومرعبة ومدمرة أن تعيش التاريخ أكثر من مرة وأن تشهد ولادة الشخص ذاته مرتين ولربما إلى نهاية الزمان»، وأن

تتكرر حروب السرديات المتقاتلة، ويطفو على السطح دوماً من يحملون حقد التاريخ ويحرسون معبد الأحقاد والبغضاء، وأن نرضخ لمناخ مسموم ومنزوع الهيبة والرموز، ولتعميم تهمة الخيانة وتدمير جميع المراجع واستباحة الذاكرة الجماعية والفردية، وفقدان البوصلة الوطنية، وأن نترنح حتى السقوط في دوامة من التخبط والعلاقات المريضة الموسوسة، وحالات النكران وتحويل العلاقات إلى جحيم ومرارات عيش.

أعرف أن الكثير من الأصدقاء الذين كابدوا أهوال الحروب السابقة ونجوا منها ليواصلوا بطولة العيش على حافة الحياة، وينغمسوا في حياة صامتة مميتة غير قادرين على البوح بما يحررهم أو يشفيهم من أثقال ذاكرة مرضوضة تنوء بالكدمات والجراحات المتغلغلة بغشاء رقيق وقابل للاشتعال من أبسط وخزة أو بأوهن هبة ريح.

هم لا يستطيعون ولا يريدون رغم أني أسهبت في التوضيح أن الغرض من الشهادات والحكايات هو المساهمة في إعادة بناء الذاكرة الجماعية لشعبنا الصابر عبر التشديد على أهمية تفعيل مبدإ عدم الإفلات من العقاب بما هو حق للضحايا وللمجتمع، ومن أجل ألّا تتكرر الانتهاكات والفظاعات ويعلم الذين اقترفوا تلك الفظاعات أنهم ليسوا بمنأى عن المحاسبة على المستوى الحقوقي والأخلاقي وإن طال الزمن، فالجرائم ضد الإنسانية لا تسقط بالتقادم.

الغرض من ذلك هو تشييد ذاكرة حية وفعلية من خلال اعتبار الكشف عن الحقيقة حجر الزاوية لنجاح أي مسعى للمصالحة أو أي مبادرة لتسوية ملفات الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان. وللضحايا وذويهم الحق في المطالبة بالاطلاع

على أرشيف أجهزة الأمن، وفي استدعاء مقترفي جرائم التعذيب والتصفيات الجسدية لرواية ما مارسوه من تنكيل.

وقد كررنا مراراً القول بأن الهدف من طي صفحة الماضي ينبغي أن يتعارض قطعياً مع كل الدعوات إلى الضغينة والانتقام والمساءلة الجنائية، وأن هذا الطي أمر يستوجبه التطلع إلى إنصاف الضحايا والمجتمع المنهك، ويعتبر واجبا أخلاقيا تجاه الضحايا، مع التأكيد على أن المحاسبة لا تعني الانتقام قطعاً، بل تعني احترام سلطة القانون، ثم إن المحاسبة تمنح طمأنة ضرورية للأجيال القادمة، وتمنع رجال السلطة من الاستمرار في الإقامة على الانتهاك، ومن التكرار القاتل لأنفسهم، إضافةً إلى أنها تشكل مؤشراً مهماً لقياس الرغبة السياسية في إرساء فضاء صحي للممارسة السياسية وقابل للبقاء وللاستمرار.

وهكذا تغدو المطالبة بمحاكمة مرحلة ما أو عهد سياسي معين بإجراءات القضاء العادل والمنصف مشروعة وعلاجية، لنتعظ بدروس التاريخ ولنقر بأننا كي نعيش معا لابد من ترسيخ شكل من أشكال العدالة الاجتماعية، بالانطلاق من الإدراك العميق بأن أحد الأهداف الاستراتيجية للعدالة الاجتماعية يتركز في العمل على عدم تكرار الفظائع بتفعيل مبدإ المحاسبة.

واللافت أن الاعتقاد السائد لدى النخب في بلادنا يذهب إلى أن المصالحة يمكن أن تتحقق عبر أكثر من جلسة «مجابرة، ومؤانسة»، وتربيت على الأكتاف والدعوة إلى النسيان، أو حتى «الاعتذار» والتعاهد والالتزام بقسم –يمين-، وفي ذلك مغالطة كبيرة وإضمار لحروب وتصفيات مؤجلة، فهو أبعد ما يكون عن المصالحة التي شهدتها عديد الدول التي انطلقت في تجاربها من وعي عميق ومسؤول لحقيقة أن المصالحة سيرورة

صعبة وطويلة الأمد، ولا تسير وفق خطة محددة سلفاً، بل هي ثمرة سياق تاريخي مميز إلى جانب أنها شخصية عميقة، وأنها استحقاق ينبغي أن ينبع من عمق المجتمع ولا يمكن أن تكون مفروضة عليه من الخارج، ويجب أن تكون مصالحة اجتماعية تندرج في سياق إرادة تحقيق تغيير اجتماعي وسياسي وطيد وإدماجي، خاصة في المجتمعات المتهتكة والمدمرة بانقسامات حادة، موروثة ومكتسبة ومتجددة.

وليس ثمة من رهان على إعادة بناء شرعية للنظام إلا عن طريق المصالحة واستعادة الثقة بالمؤسسات، بدلا من الانسياق وراء الدعوة المخاتلة إلى نسيان ما صار لأن هذا النوع من النسيان يعتبر شكلاً من أشكال توطين الظلم وإهانة الضحايا، ومن المستحيل نسيان الماضي فهو دائماً يطفو على السطح، ولذلك من الصّواب إظهاره بصورة بناءة وشفافة، ومن الأجدر مواجهته حتى لا تتكرر شناعاته بالانفتاح على رحاب المصالحة بما هي مراجعة سوسيولوجية جماعية لماض مازال يلقي بظلاله الكئيبة على المجتمع ويخترق الوجدان الجماعي، ويخلف بصمات قوية تنكأ الجراح وتثير القلق بموجات لا تكف عن التشويش على صيغة الحاضر وخربشتها.

وليس ثمة ما يحول دون تشغيل الذاكرة المنكسرة في إطار عملية معقدة تروم مجابهة هذا الحضور الكثيف والعنيف للماضي باستحضار عملية تاريخية نعلم أنها محفوفة بالألغام، ومفتوحة على اختلاط الذاتي بالموضوعي، وانسياب الأزمنة وتداخلها بطريقة تراكمية تخرق منطق الزمن المألوف.

إن الانتقال إلى فضاء المصالحة يشترط على الأطراف المعنية الانتقالَ إلى تقديم نقد ذاتي يرسي أرضية لمصالحة وطنية وفق

منطق اللامنتصرين واللامنهزمين بما يؤمّن سبيل رد الاعتبار إلى المجتمع والضحايا، وبما في ذلك جبر الضرر والتعويض المادي والمعنوي وإجراء الإصلاحات القانونية والمؤسساتية للحيلولة دون الانزلاق إلى تكرار الكارثة بأسوإ وأكبر منها.

لعل هذا الأمر يستلزم التحلي بالكثير من الجرأة والإرادة، وقد لا يتيسر ذلك في بلاد تفتقر نخبها إلى ثقافة الاعتذار والاعتراف، ويفتقر المسؤولون فيها إلى المسؤولية وإلى الوعي بأن مقتضيات السير نحو المستقبل تدعو –بالدرجة الأولى- إلى تصفية شاملة ونهائية لكل نزاعات الماضي التي لم يتمّ تسويتها بالطرق السلمية ولن تتحقق هذه التسوية إلا من بوابة حوار الإرادات الجادة، والحوار بما هو إرادة المصير المشترك، وبما هو «قوة الفكر وليس فكر القوة» وبما هو الطريق الأمثل لتوليد ثقافة المصير المشترك والانفتاح على الآخر والقبول بالاختلاف.

(10)
تبييض سياسي

يبدو المشهد الراهن مشوشاً ومغشوشاً وشديد القتامة، ونبدو فيه كمن يترنح على أعتاب انهيار مهول إذ مازال من يقيم بيننا بل ومن يتصدر المشهد اليومي الدامي وهو يتوهم أنه بالإمكان تجزئة السفينة غير آبه بأن هذا الضرب من الوهم يعني غرق الجميع. وتزداد قتامة المشهد مع استمرارنا في خوض حروب سابقة، وفي استئناف ما اندثر من حروب في عالم متغير تماما، والانغماس في الأبدي بدلا من مواجهة سؤال التقدم التاريخي، والتهاوي التراجيدي في منخفض الأوضاع المستحيلة والخراب والفوضى والشتات والتشظي، والسقوط في دهاليز مرحلة «الجيوش» الميليشياوية الكثيرة الزاحفة على أي مكان وفي كل مكان، وزيادة معدلات الموت قتلا وفقرا وجوعا ومرضا، وتدميرا للذات وتفجيرا للجماعات، وثأراً وغدرا وتصفية جسدية واقتصادية للآخر، ومتعة ورياضة يومية وتسلية وإشباعًا للرغبة والكيف (المزاج).

وكما كل مرة: تتكرر الحرب وتتكاثر بسبب غياب المساءلة المحاسبة وعدم تفعيل مبدإ عدم الإفلات من العقاب والعدالة، وغياب أي وقفة وممارسة نقدية جادة لأسباب ونتائج ما نشهدهُ اليوم، الأمر الذي شجع عدداً كبيرا من المسؤولين السابقين عن الجرائم والكوارث على التبييض السياسي لصورهم وتعويم جرائمهم، والأدهى من ذلك أن عدداً كبيرا من كبار أصحاب

السوابق أصبحوا يطلّون علينا بهيئة المتحدثين عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، ولا تعوزهم الجرأة في تبني مبادرات إحلال السلام وتسوية النزاعات.

لقد كان هذا الوضع الرجراج والمائع يشجع معظم المنحدرين من سلالة القتلة وأنجالهم على أن يكونوا من العناوين الصارخة للمشهد الدموي الراهن كـ«ورثة رسالة» أو كمن يتكئ بافتخار على بطولات وأمجاد سابقة.

لا شك في أن هؤلاء جميعا لم يتعلموا الدرس قط، ولم يكن بمقدورهم ذلك في ظل استقالة العقل بل وغياب أي عقل نقدي كاشف لجذور المحنة المتطاولة مازالت تطالعنا بحقيقة عنيدة وأكيدة مفادها أنه ليس من حق أية جهة أن تسطو على مصير شعب وأن تكون وصية عليه وناطقة باسمه أو أن تختزله في هوية واحدة لأن في ذلك مزاوجةً للمأساة بالمهزلة.

ثم إن التبييض السياسي للوجوه الكالحة جعل من الصعب الحديث عن طيّ صفحة الماضي، أو استعادة ثقة المواطنين بالقانون والمؤسسات التي تعتبر أساس الانتقال إلى دولة الحق والقانون، بل وأساس أي انتقال ديمقراطي، وفي ظل التبييض تغدو لقاءات المصالحات شبيهةً بحفلات الزار ولا تزيد عن كونها لقاءات كاذبة بلا حدود.

(11)
أطياف عدن

يجدر بمن اكتنفته عدن أن يكتب عنها دون أن يتأوه بصوت مسموع حين تلسعه الجمرات الحارقة في الأزقة، وعليه أن يكتم ظله حين يقتحم الزوايا الخطرة ويرتطم بالأشباح و«الشبيحة»، وحين يخترق سخام الوجوم المهيمن على الوجوه والأرواح والصمت الطافح بالذهول إزاء ما حدث من دمار للعمران والإنسان على مرأى العالم كله في المدينة التي كان ميناؤها يحتل المرتبة الثانية بعد ميناء نيويورك.

يجدر بك أن تجتر خيباتك ومراراتك وخساراتك وحسراتك ولا تتسرع في الهرولة إلى أصدقاء الحنين والكآبة واللاجدوى و«رفاق» الأيام الخوالي وأحلام الخلاص والفاقة، كيْ تتمكن من الكتابة بضوء القلب وتقترح للمدينة سماء أخرى تتسع للحياة.

وقبل ذلك كله عليك أن تتهيأ لامتصاص الصدمات الكثيرة تجاه مدينتك التي لم تعد تشبه نفسها، ولم تعد قادرة على التعرف على نفسها في تاريخها القريب والبعيد، بعد أن ضاقت بأهلها وتقطعت أوصالها وتوزعت جبالها وسواحلها وأنفاقها وصهاريجها وحدائقها بين مخالب الذئاب المتهافتين والمتكالبين على عدن كغنيمة حرب، يتقاتلون عليها انطلاقا من نفوذ السلاح الذي يمنح السلطة لمن لا يستحقها.. هي كتابة عن مواكب العزاء وعن الجنازة التي كانت أسبق من

العرس، وأبواب الجحيم التي كانت مواربة وإذا بها تنفتح على مصراعيها. كتابة تنوء بأثقال ذاكرة موزعة بين الأطياف الغاربة والواقع الفاجع، كتابة مفتوحة على القول السائب والجارح والصادم.

كتابة عن مدينة صلوات ضائعة وخطوات عمياء، وحنق متوج بسعفة الحداد. عن الاختطاف والاغتيال والاختفاء والامّحاء، والجغرافيا المزروعة بالدبابات والضغائن والأحقاد وكمائن الغدر والثأر والخرسانات المسلحة والأكياس الترابية والجدران الكهربائية والحراسات الأمنية المزودة بالكاميرات المتطورة، والسيارات المدرعة والمصفحة الواقية من الرصاص، وعن غابة الأسلحة والبنادق والخنادق والمسلحين.

تلك هي المدينة التي كانت تنبض بالحياة والحرارة واللهفة وقد أصبحت «مأخوذة رهينة في لعبة شد حبال متداخلة» -ابريل لانجلي مديرة مجموعة الأزمات الدولية- كل هذا يحدث في المدينة حيث... «فيما يشبه الخيال العلمي، كانت النساء يلبسن التنورات والسراويل بل ويجلسن في المقاهي يوم أخذ البلد على عاتقه مهمة نشر الفكر «التقدمي» ومحاربة «الرجعية» المحيطة. حين كان يحج إلى عدن كل شيوعي المنطقة ليجربوا وصفة تطبيق الماركسية -كما قال أحد الرفاق المغاربة-.. ويتحسر الرفيق المغربي على عدم تمكنه من مشاطرة الشيوعيين المشارقة مواسم حجهم إلى عدن واللوذ بها كما فعل الشيوعيون العراقيون الفارون من بطش البعث الصدامي، واللبنانيون التي كانت بلادهم ليبرالية بالفطرة، والفلسطينيون الذين لم يكن لهم أرض ينشرون فيها قيم العدل والمساواة والحرية وذهبوا لتطبيق الوصفة في عدن، رغم أنهم لم يجدوا

بروليتاريا ولا صناعة وعاشوا أحلامهم وعوضوا أنفسهم في هذه البقعة من الأرض؛ عدن التي ارتكبت أحلاما تفوق قدرتها وطاقتها على التحمل.

كان ذلك حينما كنا متطيرين، أو متطرفين إن شئتم، يساريين حالمين وحاملين راية تغيير العالم ولم تبارحنا بعدُ لدغة طعم الحلم رغم مرور الكثير من المياه تحت جسر الزمن وفوقه، ورغم انهيار «تجربتنا» اليسارية إلا أنه انهيار خلف أثرا كبيرا في مختلف مناحي الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية.

وليس بخافٍ على أحد أن «اليسار» عامةً ساهم في انتاج روائع الأدب والمسرح والسينما والأغنية والرسم والكاريكاتير وغيرها، وعمل على إنشاء وتطوير معظم الحركات الاجتماعية الرئيسية في العالم. من قبيل ذلك الحركة النقابية والحركة النسائية والحركة القومية والحركة الطلابية، وغيرها. فضلا عن إطلاق دينامية التعليم العمومي، والصحة للجميع[1].

لقد انهارت « تجربتنا الثورية» كما انهارت غيرها من التجارب، سواء سقطت نهائيا أو مؤقتا إلا أنها لم تسقط إلا بعد أن تركت أثرا عميقا باقيا في الحياة السياسية المعاصرة وأمنت التعليم المجاني الإلزامي بما فيه ابتعاث آلاف الطلبة لتحصيل الدراسات العليا في مختلف التخصصات، والتطبيب المجاني وخدمات الكهرباء والماء دون انقطاع، وكفلت حق المرأة بـ«قانون الأسرة» الذي يمنع تعدد الزوجات، وغير ذلك.

ومع ذلك فقد كان لنا حصة كثيرة من الأخطاء و«الخطايا» وحصة كبيرة من قصر النظر والتمادي في الحلم والتخبط المشين

1- راجع الكاتب المغربي سعيد ناشير، و«أسئلة ما بعد سقوط الإسلام السياسي»، صحيفة العرب10/ 08/ 2018.

في الانقسامات وعدم القدرة على الإحاطة بالمسار التاريخي الاجتماعي والسياسي والفكري للأحداث إلى الدرجة التي صرنا معها غير قادرين على تفهم انقذافنا في مدارات مسرح الهول التي لم ندركها بسهولة بسبب اهتراء عدتنا من الأدوات والأفكار وهلاكها حتى أصبحنا نعضّ نواجذ الندم على ما كان ينبغي أن ينجز قبل أكثر من ثلاثة عقود وما بعد كارثة 13 يناير التي كانت، رغم هولها أقرب إلى «البروفة» بالمقارنة مع هول اليوم المتمادي في حرب مفتوحة دخلت عامها الرابع دون أن تلوح لها نهاية، والمحزن هو أنه فوق هذا الهول المتمادي في ذبح الأمل إلا أننا «هربنا من الحس المأساوي في كل اتجاه: نحو الشجار والاتهام والبحث عن أكباش فداء، نحو التشاؤم والتبشير الحماسي به، نحو التنبؤ وكره الذات، نحو التظلم، الغضب، والإرهاب. هذا لا يجدي؛ أتكلم بحسّ مأساوي لأننا مضطرون اليوم إلى أن ننظر بشجاعة وصبر في الشروط التي لا تكف عن جعل النظر مستحيلا: شروط المذبحة».[1]

وفي معرض مقارنته بين تجربة اليسار وواقع التغول للإسلام السياسي بنسخته الجهادية المسلحة قال سعيد ناشيد: «أما الإسلام السياسي فسوف يخلف بعد سقوطه أرضاً ممسوحة من كل شيء فلا أثر يذكر، ولا إرث يعتبر و... وفوق كل ذلك، ليس يخفى على أحد أن الإسلام السياسي لم يخض أي معركة من معارك الرقي الإنساني، بقدر ما انحصر دوره في تدمير أهواء الفرح وغرائز الارتقاء وقوى الحياة داخل النفوس الشابة، ومسح الأرض من كل الأسس التي قامت عليها الحضارة، وتكفير

1– ياسين الحاج صالح، «نهاية نموذج الوطنيين الديمقراطيين»، موقع الجمهورية، 12 أكتوبر 2018

المفكرين وتفكيك دولة الرعاية..».[1]

والشاهد على صواب ما ذهب إليه «ناشيد» كثيرة وغزيرة في عدن عقب تخليصها من غزوة الانقلابيين الحوثيين في يوليو 2015 ودخولها ليلَ المليشيات المفتوحة حيث تقاسمها القراصنة والسلفيون برعاية ودعم تمويل قوات التحالف العربي.

*****

«يتهمونني بأني ملحد، يا هؤلاء: أنا أرى الله في الزهور وأنتم ترونه في القبور، وهذا الفرق بيني وبينكم». هذه آخر الكلمات التي كتبها الشاب العدني (17 سنة) «عمر باطويل» على صفحة الفيسبوك قبل أن يغتاله القتلة الإرهابيون في 24 أبريل 2016.

كانت صفحته تتزين بصور لانجلينا جولي واقتباسات لصنع الله إبراهيم وباولو كويلهو ونزار قباني وأمنيات مؤجلة بالسلام والوطن السعيد والسفر.

عمر باطويل لقي مصرعه برصاصة في الرأس على يد جماعة متطرفة إثر اتهامه بالردة بسبب آرائه وذنبه أنه كان يجاهر بتعريف نفسه بأنه إنسان لا يجيد اتباع ثقافة القطيع، يغرد خارج السرب.

كان يجاهر بشغفه بالموسيقى والفن والأدب والفلسفة معتبرا إياها «مضادات التطرف» وكانت الجماعات الإرهابية ترصد وتتابع باطويل وغيره من الشباب وتوجه إليهم رسائل التهديد إلى أن نفذت جريمتها البشعة.

بعد عام وأيام مساء الأحد 14 مايو 2017 أقدمت مجموعة

1- راجع المصدر السابق

من الملثمين الإرهابيين على اقتراف جريمة أخرى أكثر بشاعة في مدينة الشيخ عثمان أيضا عندما اقتحمت مقهى انترنات وقامت بقتل وذبح الناشط المدني الشاب «أمجد عبد الرحمن» الطالب في كلية الحقوق بعدن.

الملثم المسلح الذي تقدم المجموعة المقتحمة لمحل الانترنات في شارع الكويت بالشيخ عثمان بعد نصف ساعة من دخول أمجد مسنودا بثلّة من المسلحين الذين انتشروا أمام المحل وجماعة أخرى مساندة وغير مرئية، وقام بإطلاق عدة أعيره نارية ليقدم بعدها على نحر رقبته بالسكين، وقبل أن يغادر المقهى هدد الموجودين في المقهى بنفس المصير في حال تحركهم لإسعافه.

لم تحضر الشرطة إلى المكان إلا بعد انقضاء أكثر من ساعتين، ولم تقم بأي إجراءات.

كان أمجد يرأس نادي الناصية الثقافي الحاضنة للإبداع والمنافحة عنه وهو مدونة مميزة تشاركه في تحريرها باقة متوهجة من شابات وشباب مدينة عدن الذين تعرضوا للتنكيل والملاحقة والتهديد بالقتل، وأجبر معظمهم على مغادرة البلاد نهائياً.

لم تكتف المليشيات بالجريمة المشهدية وانما منعت الصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين بدعوى أنه «ملحد» ومنعت أهله في كريتر من استقبال جثمانه وإقامة موكب العزاء.

لاحظ شهود عيان أن المسلح الذي قام باغتيال أمجد كان يرتدي زي الشرطة.

وكشفت المعلومات التي تداولتها وسائل الإعلام عن قيام الجماعات الإرهابية في الداخل والخارج بجمع معلومات عمن

تعتقد بأنهم «لا دينيون»، تلقى أمجد -كزميله عمر باطويل- رسائل تهديد عبر تطبيق «واتساب» من مصدر مقيم في الخارج، إضافةً إلى تلقيه تهديدات بالتصفية من قبل قائد الحزام الأمني بمدينة كريتر-المدينة الأكبر في محافظة عدن-.

وعقب اغتيال أمجد وحين تصدى الشباب من مثقفين وصحافيين وناشطين للجريمة بالاستنكار والتنديد والمطالبة بالتحقيق مع الجناة كشفت المليشيات الإجرامية عن وجهها جهارا، وشنت حملة لملاحقة زملاء الشهيد أمجد، وقامت باعتقال ثلاثة من الصحافيين: هاني الجنيد، وحسام الجنيد، وماجد الشعيبي، وزجت بهم في سجن معسكر 20، الذي يقوده قائد الحزام الأمني «النوبي»، وهناك تعرضوا لشتى صنوف الانتهاك والإهانة والتعذيب. وقد نشرت صور لهم تظهر آثار التعذيب من قبل الخاطفين الذي منعوهم من دخول منزل الضحية (أمجد) لتقديم واجب العزاء لأهله، واقتادوهم إلى سجن المعسكر ولم يخرجوا من السجن إلا بعد حملة ضغط واسعة من قبل المجتمع المحلي في عدن والناشطين داخل وخارج البلاد، وبعد أن قام مدير أمن عدن شلال شائع بـ (وساطة لدى النوبي) للإفراج عنهم على أن يغادروا البلاد نهائياً وذلك ما حدث لهم، كما كان ذلك هو مصير بقية زملاء أمجد من الناشطات والناشطين.

هكذا صارت المدينة بلا مدنيين وفقدت طعمها ورائحتها وذكاءها.

*****

كان الفراغ الناشئ عن فساد وتعفن وتحلل النظام السابق وعن اندحار الغزو «الحوثفاشية» من عدن وساهمت

«الشرعية» الواهية والمتفسخة في تعميمه وتعويمه، هائلاً ومغويا لأن تشغله شراذم المنتصرين على أنقاض مدينة مهمشة وأشلاء شعبها والجماعات المسلحة والعصابات الإجرامية الكبيرة والمايكروسكوبية والمعطلين و«المتبطلين» وأصحاب السوابق من الخارجين عن القانون والمتخرجين من السجون و«بلاطجة» الحواري (الفتوات) والجماعات السلفية التي كانت تتشكل منها المليشيات الأكبر والأكثر تنظيما- جماعة النهضة، جماعة المحضار، وجماعة الفيوش، والقاعدة، وداعش، والحزام الأمني، وما تتفرع عنه من أحزمة كالحزام الأمني الذي يقوده السلفي الجهادي إمام محمد النوبي الذي استولى على معسكر 20، ومن خلاله وعبر ما صدر عنه من ارتكابات تكشف للعيان السلوك الغنائمي لجلّ تلك الجماعات وهو سلوك يتسربل بغطاء ديني ليكتسب الشرعية منه وقد أسهم في تهيئة حاضنة التدخل الخارجي «وعمق واقع انقسام المجتمع المعطل والانكساري»- حسب وصف عالم الاجتماع التونسي المنصف وناس، في إطار مقاربة للمشهد الليبي.

*****

إمارة كريتر:

ليس لإمام أحمد عبده أو إمام النوبي إرث تاريخيّ أكثر من عمله ميكانيكيّ لحام لفترة وجيزة، وهو بلا أية مرجعيّة أو خبرة أمنية وعسكرية قبل أن يصبح قائدا للحزام الأمني في كريتر، المدينة الأكبر في محافظة عدن نظرا إلى علاقة قرابة تربطه بقيادي سلفي صديق للقائد السلفي الأشهر والمثير للجدل هاني بن بريك الذي يحظى بمظلة حمائية وتمويلية إماراتية كبيرة.

وكان يرتبط بعلاقة قرابة بقيادات سلفية شاركت في وقت

سابق في حروب دماج بصعدة، كانت تقوم برفد جبهات الحرب هناك بالمقاتلين من الشباب الفقراء والأيتام في عدن والمحافظات الجنوبية المجاورة، فقد حظي النوبي بالدعم والتغطية اللازمين من قبل نافذين كبار حين استهدف بالاغتيال الشاب الحقوقي أمجد وهدّد وانتهك ونكّل بغيره من الشباب أو حين خاض حروب السيطرة على مساجد كريتر وأهمها (مسجد أبان الشهير) حيث قام بمنع الشيخ محسن البيضاني من صعود المنبر وإلقاء خطبة الجمعة بقوة السلاح وسيطر وجماعته على المسجد بعد ضرب المصلين الذين اعترضوا على صعود محمد مهدي صديق النوبي، وعلى نحو ما حدث في (مسجد أبان) تعرضت بقية مساجد كريتر لتفجيرات وغزوات لتستثمر لاحقاً في حملات التعبئة والتحشيد، وأطلق النوبي العنان لأتباعه ليقوموا بنهب الأراضي والبيوت بعد تحرير المدينة. ويمكن القول بأن الجنازة كانت أسبق من العرس حين تمادى أتباع الرجل في نهب الأراضي والتفتيش في السجلات العقارية وتزويرها وإجبار بعض الأهالي على بيع بيوتهم بأبخس الأثمان، كما حدث للمحامية العدنية نائلة عبد الله صالح التي أجبرت على بيع منزلها بثمن بخس، إضافةً إلى أنها تعرضت لضغوط عنيفة وحين حاولت التعبير عن معاناتها بالنشر في وسائل التواصل الاجتماعي واهتاج النوبي وجماعته وأرغموها على كتابة اعتذار ونشره في الوسائط ذاتها، وهكذا فعلوا مع الكثيرين كما تمادوا في فرض الإتاوات على المحلات والأكشاك والبسطات تحت بند الحماية، وفي ذبح الأعناق والأرزاق على الهوية على غرار ما حدث لبعض «الشماليين»، وبدلاً من الانعتاق من الميليشيات الغازية القادمة من أعالي شمال اليمن وقعت كريتر تحت احتلال لفيف من «البلاطجة»

وأصحاب السوابق الجنائية والكذابين والمحتالين والنصابين وتحاشى معظم سكان المدينة المسالمين اعتراضهم وخافوا أن يتكلموا أو يشتكوا فهم بلا سند قبلي أو مناطقي ولا قوّة ولا قول لهم.

هكذا كان مصير عدن ومازالت مسرحاً لاستباحة نزوات القبائل المسلحة الغازية من بعيد أو الزاحفة عليها من محيطها والتي طالما تناوبت نهبها وتقطيع أوصالها وتريفها وتجريفها.

وبعد بضعة أشهر من تحريرها تحولت كريتر إلى «إمارة» يحكمها إمام النوبي وأصبح الشاب الطالع من رحم الصدفة والعدم دكتاتورا يتعرض كل من ينتقده للسجن ويهدّد بالتصفية.

فانهالت كل المعابد والأضرحة والعلامات والشواهد التي كانت تؤشر إلى أنه كانت هنا مدينة.

تبلقنت و«تملشنت» المدينة وأصابها الشلل التام واقتسم المتقاتلون عليها جبالها وسواحلها -المعاشيق وحقات مع جماعة هادي، وجولدمور مع عيدروس وشلال-، وهناك تمركزت جماعات أبين وفي الجانب الآخر تخندقت الضالع- وانتشرت الجيوب المسلحة من عصابات وميليشيات من مختلف أرجاء مديريات محافظة عدن التي تشتتت بين مراكز القوى المتنافسة، وانتشرت نقاط التفتيش والمتاريس والخنادق وتحولت المدينة إلى فضاء مركزي للخردة واستئساد الميليشيات أمام بقايا الدولة و«شرعية» أخفقت تماما في معالجة ملفات الأمن والخدمات.

وبعد تجربتها وخبرتها غير السارة بالمرة كانت مسؤولة اليمن والجزيرة مجموعة الأزمات الدولية «أبريل لانجلى» قد خلصت بعد (ثمانية أيام في عدن) إلى أن: «المدينة مأخوذة رهينة في لعبة

شد حبال متداخلة، قتل فيها أكثر من 20 داعية –كان هذا إلى مطلع 2017 - ومازالت مسرحاً لتصارع المقاتلين الريفيين ضد بعضهم بعضاً على السلطة في عدن وكلهم بيادق في لغة يلعبها السعوديون والإماراتيون والقطريون والايرانيون والأمريكيون والبريطانيون».

وكما تحدثت تقارير الهيئات الدولية ووكالات الأنباء عن مزيج هائل من الميليشيات والفصائل وأمراء الحرب السلفيين والقبليين و«القاعدة» و«داعش» فهي تعبر عن حيرتها وذهولها تجاه السجون الكثيرة والمثيرة للجدل، إذ لكل طرف سجونه، ووحدها القوات الإماراتية المهيمن الرئيس على عدن تشرف على خمسة سجون تمارس فيها شتى أشكال التعذيب بما في ذلك التعذيب الجنسي –حسب الأسيوشيتد براسْ- فهناك سجون في قاعدة تابعة للقوات الإماراتية بالبريقة وآخر في منزل شلال شائع مدير أمن عدن المتحالف مع الإمارات، وثالث في ملهى وضاح الليلي الذي تحول إلى سجن، ورابع في بئر أحمد وخامس تابع للعقربي وسادس تابع لجماعة النهضة السلفية التي يتزعمها السلامي، وسابع لمعهد الفيوش السلفي، و... القائمة طويلة.

كل هذا يعكس واقع الانقسام والتشرذم العميق للمؤسسات الأمنية والأخطار التي تقوّض شروط الحياة وتدمرها، وهي لا تنحصر في ما ترتكبه جماعات التعصب والتطرف المؤدلج.. ولا تستظل بسقف السياسة بل تتصل أيضا –في حالات كثيرة- بالحمق والابتذال والتفاهة والأنانية والإنكار.

كل ذلك قلّص الأمل في البقاء على قيد الحياة يوماً بعد يوم وجعل المدينة موضوعاً للكتابة أكثر من صلاحيتها للحياة.

ويسبب المشهد الأمني «المملشن» والمتشرذم تشكلت في

المدينة «منظومة اقتصادية» و«طبقة مستفيدة» من الواقع القائم وليس ثمة إمكانية تلوح لكسرها في الأفق المنظور.

والأنكى من ذلك أن منظومة الفساد الاقتصادي والنهب حظيت بدعم جماعات تحاول الإبقاء على الوضع القائم، وتتشكل هذه الجماعات من سياسيين ومجموعات مسلحة ومهربين وأفراد عصابات إجرامية تتشارك كلها في تمويل البقاء على قيد الحرب، وفي صعود العصبيّات بكل أشكالها والاتكاء على إرث ثقافي واجتماعي عنيف وضارب في العمق.

لم يعد غريبا أن يهيمن زعران وفتوات الحواري وخرّيجو السجون على أقسام الشرطة وتزاح الكفاءات ويستهدف ذوو الخبرة والمؤهلات في القطاع الأمني بالتصفية الجسدية والاقتصادية.

وازدادت الأمور سوءا وكارثية مع ارتهان «الشرعية» للميليشيات وسطوتها، وأفضت استعانة هذه «الشرعية» بالميليشيات والجماعات المسلحة التي تحوّل تلك الجماعات إلى «مافيا منظمة» تمتلك شبكات تؤثر في الاقتصاد والأعمال والسياسة والإدارة، وتسيطر على سوق العملة، وتحتفظ بالعملة الصعبة لتضخها في السوق السوداء ولتكون سببا في انهيار الريال المنهار من أصله، وتمارس كل أشكال الابتزاز على بقايا المؤسسات الحكومية والمصرف المركزي، وتتحكم في الاعتمادات الحكومية والصفقات التجارية ومفاصل الاقتصاد ومحلات الصيرفة وحركة الطيران والنقل البحري وفي الإعلام، حيث أصبحت بعض القيادات البارزة في صفوف الميليشيات تمتلك عشرات المواقع الالكترونية وتعتزم إطلاق فضائيات تلفزيونية، وتعتمد صرف مرتبات لمعظم رؤساء الصحف والصحافيين على

قلتهم وهشاشتهم ورثاثتهم.

وفي سياق التردي في هاوية بلا قاع تتحرك جماعات نافذة بقوة السلاح متلفعة بشعار «استعادة الدولة» وبالأحرى «استعادة السلطة» لإنشاء أحلاف وتحالفات على غرار «حلف قبائل الجنوب العربي» الذي أشهر في مطلع مايو 2018 ليضم لفيفاً من بقايا السلاطين ومشائخ القبائل بدعم من أطراف التحالف العربي النشطة في مجرى تقسيم المقسم و«شرذمة المشرذم»، وإنعاش العصبيات وتجديدها، وقد اتخذت هذه الأطراف من عدن مسرحاً لأداء هذا الطقس الكوميدي الأسود بإعلانها «حلفَ قبائل» ضمن ممارسة القتل غير الرحيم لما تبقى من نبض مدني في هذه المدينة التي يُراد لها أن تكون بلا طعم ولا حياة.

ويتصل الإشهار عن هذا الحلف بمزاج وذهنية المتعهدين والممولين للمقاتلين بالوكالة وتوجههم نحو التعاطي مع مشائخ ومشيخات لحساب إضعاف وإقصاء ما تبقى من الأجسام والفعاليات السياسية التي تتبنى توجهات مدنية وعصرية، وعليه فقد بدأ يخلع لقب «الشيخ» قائد الحراك أو الزعيم السياسي في ضرب من الاستنقاع الأسود.

وبالمناسبة اعتبر تقرير فريق الخبراء الدوليين الصادر مطلع 2018 أن المقاتلين بالوكالة يشكلون تهديداً كبيراً للسلام والاستقرار في اليمن مشيراً إلى أن هذه القوات مرشحة لأن تزيد اليمن تمزقاً، وقد تطرق التقرير إلى القوة التي قامت الإمارات بتشكيلها وتمويلها بدءاً من قوات الحزام الأمني في عدن أوائل 2016، ثم قوات النخبة الشبوانية. وكل هذه الأحزمة والنخب يغلب عليها الطابع المناطقي ولا يربطها رابط وطني أو عملياتي

يؤكّد جدّية المسعى لبناء مؤسسة جيش وطني بل وجيش وطني جنوبي، ما يؤشر إلى تفضيل المتدخلين الإقليميين في الشأن اليمني للتعاطي مع التوتر والفاعلين على الأرض بالتفرقة والتجزئة، وتبعا لمنطق الاحتياج الآني لـ«مرتزقة» ووكلاء مرحليين -لنا تناول موسع لهذه النقطة في جزء لاحق-.

كان هذا اللفيف من الجماعات كاسحاً في عدن التي تعرضت بفعله إلى أكبر عمليات السطو والنهب والتدمير غير المسبوقة في تاريخها كله، وتحولت مع الأسف الشديد إلى فضاء مركزي للخردة.

إن كل ما حدث في هذه المدينة التي سمّيت بهتاناً «العاصمة المؤقتة» شاهد على أنها تموضعت نقطة استقطاب أولى لأطراف الصراع ليس لكونها أضحت مركزاً للقرار السياسي والدبلوماسي كما يجدر بأي عاصمة. وإنما ساحة للمنافسات الاقتصادية الدموية والضارية، بما يؤكد أن الحرب في الجانب الأكبر فيها حرب غنائم، وقد رشحت هذه الغنائم بطبقة من أمراء الحرب المحتكرين لمليارات الريالات والمسيطرين على مناطق نفوذ ومنافذ ومعابر برية وبحرية ذات عوائد يومية متجددة وعالية، خاصة أن جميع هذه الميليشيات والجماعات الأمنية المفتتة طورت أساليب لجمع الموارد من التهريب والممارسات الإجرامية، وليس ثمة ما يشير إلى أن الميليشيات المستفيدة من الحرب والمستثمرين في مناخات الفوضى سوف تتنازل عما اكتسبت بسهولة حتى في حالة تدخل الخوارق المستعجلة والحلم المستحيل باستعادة القبضة الحديدية لزمن الحكم الاشتراكي المثير لحنين طيف لا يستهان به من السلفيين اليساريين.

الواضح أن جدول أيام الحرب المفتوحة لا يتسع لتدخل

الخوارق والمعجزات المحلوم بها لتخليص عدن واليمن كلها من دورة العنف المفزعة والدم والثأر والاستباحة، ومن براثن قطاع الطرق الذين يفرضون شريعتهم على يوميات الناس، ومن غائلة الضواري المنفلتة من كل عقال سياسي أو قانوني أو أخلاقي، ومن الوحل اليومي الدامي المترامي في ثنايا الأرخبيل السياسي اليمني الممزق، ودوائر التربة المحطمة وقطع الأرض العارية والمحروقة وحروب الأعماق والأطراف المحتدمة في أي مكان وكل مكان ولأي سبب، وامتزاج معارك الجبهات والشوارع بالمعارك المتفجرة داخل الأفراد وداخل كل عائلة وما يلازمها من دسائس وأزمات عاطفية وقتل متبادل ومتداخل ومتفاقم مع اتساع رقعة الإدقاع والضحالة والتعصب والانحطاط على كل المستويات.

وتكاد «السيطرة التأويلية» على تضاعيف المشهد ومنعرجاته تكون مستحيلة، فهناك «ثورة» وانقلاب وحرب أهلية وطائفية وجهوية وصراع إقليمي و«داعش» والغبراء و«القاعدة» ومجازر وأكبر مأساة إنسانية كونية، وأكبر مجاعة وكراهيات ومكايدات مضنية وطوعية، وعجز وضيم وانسدادات مولدة لهذيانات جماعية يجري تصريفها بنوبات هستيرية، وقابلية منعدمة للتسوية وسياسيون مافيوزيون ومشهد تحكمه عقلية العجز الكلي وهي العقلية التي أوصلتنا إلى دائرة العنف، ودفعت من حيث تدري ولا تدري إلى إشعال الحريق، واشتداد الخراب، وسيطرة منطق الرعب، ودورات متجددة من الصراعات التي عادة ما تبدأ من شكليات صغيرة لتتفجر بعدها الدراما الدموية ولتطفو معها الأحقاد التي لا تسمح إلّا بارتفاع الصوت الهمجي و«البلطجي»، والمتطرف، وثقافة ممنوعة من المستقبل ومفتقرة

إلى حس التعامل مع المستجدات بما تستحقه من بعد نظر، وذوات حزبية متشظية وأحزاب أكلتها «الرحى» وتآكلت من داخلها وفي تدمير ذاتها منهجياً، فهي أحزاب بلا أفكار ولا بدائل حكم لديها وتتحرك على هامش السياسة والحياة، وهشاشة فادحة تجلت في انهيار مجتمعي وقيمي ونكوصي وأفضت إلى بروز العصبيات وفسح المجال واسعاً للتدخلات الخارجية المعربدة، ورهن البلاد والعباد لرجال العصابات وقطاع الطرق والوصوليين وكافة أبطال الابتذال والرثاثة... وليس ثمة كارثة تاريخية وأخلاقية أكبر من كارثة شعب تمزقت أواصر الألفة والإنسانية بين جهاته وجماعاته، وتمزق نسيجه الاجتماعي وتحول إلى «شراذم» بشرية كل فريق بهويتهم فرحون، ودويلات وتقسيمات تحمل نتائج الحرب كما تنذر وتبشر بحروب قادمة.

(12)
النفط وانتقام الجوار «الرجعي»

«قصة اليمانيين في الشمال والجنوب مع النفط طويلة ودامية.. اختلطت فيها الحقيقة بالخيال، والوقائع بالأساطير. ليست مصادفة أن الحرب اليمنية السعودية عام 1934 وقعت في الفترة التي شهدت بداية نشاط شركات النفط الأمريكية والبريطانية في شبة الجزيرة العربية وبوجه خاص في السعودية والبحرين.

كان النزاع على «عسير» و«نجران» السبب المباشر للحرب في مرحلة حاول كل من الإمام يحيى والملك عبد العزيز توطيد دولة مركزية بدرجة متفاوتة من التوفيق. ومما له دلالة في هذا الصدد أن شركة نفط كاليفورنيا هي التي سلحت جيش «الإخوان» السعودي بالأسلحة والذخيرة الحديثة، التي لم تكن متاحة لجيش الإمام يحيى. وكانت من العوامل المؤثرة في هزيمة جيشه. ومنذ ذلك الوقت أصبح النفط عاملاً أساسيا في اليمن والسعودية».

أبوبكر السقاف[1]

*****

لعب النفط دور البطولة في صفقة الوحدة بين عدن وصنعاء التي أبرمت في 30 نوفمبر 1989 وأعلن عن قيامها في 22 مايو

---

1 – كتاب «الجمهورية بين السلطنة والقبيلة».

1990، ذلك أنه اندلعت في مطلع عام 1988 اشتباكات مسلحة بين الشمال والجنوب بسبب اكتشاف النفط والاحتياطات الكبيرة التي أعلنت الشركات النفطية الأجنبية عن اكتشافها بين محافظتي: شبوة الجنوبية ومأرب الشمالية وعلى الحدود مع المملكة العربية السعودية.

وفي مايو 1988 أبرمت اتفاقية بين عدن وصنعاء نزعت فتيل الحرب ونصت على السماح بتنقل المواطنين بين شطري البلاد والاستثمار المشترك للثروات النفطية والمعدنية.

كانت هذه الثروة والمؤشرات والتقديرات التي أحاطت بها صنعاء أكثر من عدن هي الموجه والمحفز الأكبر لاندفاع صنعاء باتجاه عدن وانعطافها السريع والمباغت في اتجاه تبني خطاب «وحدوي» كان في الجنوب النشيدَ الصباحيَّ والخبزَ اليوميَّ في مطابخ الإعلام والساسة الذين تشربوا خطاب الوحدة بدمغجة من يفاعتهم وسكروا به حتى الثمالة تبعاً لخلفياتهم اليسارية والقومية.

وخلال عام 1993 م قام النفط بدور معاكس تماماً لما كان عليه دوره عامَ 1989 م، فقد أصبح لدى الجنوب موارد كافية إضافةً إلى أن الجنوبيين شعروا بخيبة مريرة وخيانة أمرّ بعد انتقالهم إلى صنعاء وانتهاج قوى الطرد المركزي في صنعاء لسياسة «الوحدة بالإلغاء» ابتداءً من الإقدام على سلسلة الاغتيالات التي استهدفت القيادات الاشتراكية الجنوبية، وصولاً إلى استباحة الجنوب وغزوه وتحويله إلى غنيمة بعد حرب صيف 1994 م.

كانت القيادات الأبرز التي هندست لصيغة التقارب والوحدة مع الشمال -تنفيذياً على الأقل- من حضرموت وكان الراحل

صالح أبو بكر بن حسينون وزير النفط والثروات المعدنية في عدن قبل الوحدة هو صاحب دور البطولة في صياغة العتبة الأولى للنقلة نحو الوحدة عندما أبرم عن الجنوب اتفاق التنقل بين الشطرين، والانتفاع المشترك بالموارد النفطية التي تقع في معظمها على الحدود بين الشمال والجنوب، وعلى الحدود مع المملكة العربية السعودية التي كانت تتفاعل مع هذا الملف وتلامس إيقاعاته المسموعة والخفية بأعلى درجات الحساسية.

تجدر الإشارة إلى أن الإعلان عن حقبة النفط في شمال اليمن كان في يونيو 1984 م، وفي عام 1987 م بدأ تصديره من مأرب عبر شركة هنت الأمريكية، وفي تخوم محافظة مأرب الشمالية وبالأحرى في محافظة شبوة الجنوبية كانت شركة «تكنو اكسبورت» السوفييتية قد بدأت التنفيذ في الجزء الغربي من محافظة شبوة وأعلنت اكتشاف النفط في أبريل 1987 م.

ولّدت عمليات التنقيب عن النفط انطباعاً بأن الحقول النفطية الأغنى توجد على الحدود بين ج.ع.ي. و ج.ي.د.ش، ولذلك كانت اتفاقية 1989 م حول نزع السلاح في هذه المنطقة من أولى خطوات التوحيد بين اليمنيين للسماح بقيام أنشطة تنقيب مشتركة.

وفي مايو 1990 م شهر إعلان صفقة الوحدة كانت هناك ست شركات نفطية أجنبية تعمل في اليمن -يفترض الجيولوجيون أن المناطق الواعدة ذات بنى تحت أرض مماثلة لشرق السعودية حيث تمّ اكتشاف أكبر حقول النفط في العالم-.

لقد شكّل ظهور النفط في حضرموت لاحقا انعطافاً أكبر وعلامةً فارقة مازالت تلقي بظلالها على كافة أرجاء المشهد حتى اليوم، ومن المرجح أن تكون من العلامات الحاسمة في تشكيل

ملامح مشهد اليمن القادم ب «الأقاليم» أو من دونها، او حتى بغير ملامح.

*****

كانت خسارة العراق والساحة الثقافية والفكرية العربية فادحة مطلع عام 2018 م بالرحيل المشهدي الفاجع لعالم الاجتماع العراقي الرفيق د. فالح عبد الجبار الذي أودت به ذبحة قلبية وهو يتحدث إلى فضائية تلفزية عن مأساة بلده. كان الفقيد قد لفت مبكراً إلى اليمن والعراق وليبيا بوصفها نماذج لخواء المجتمع من الفعل.

والملاحظ أن الدعوة إلى الفيدرالية في ليبيا والعراق واليمن جاءت في مناخات احتراب وتفكك لتعبر عن الإخفاق في بناء دولة القانون منذ قيام الجمهوريات في البلدان المذكورة.

فقد توجس الليبيون من الكلام عن الفيدرالية بعد سقوط نظام القذافي انطلاقاً من الخبرة المؤلمة والدامية التي شهدتها العراق بعد الغزو الأمريكي في مارس 2003 م وبعد سقوط صدام، وكتبت أكثر من 500 وثيقة ومرجع حول الفيدرالية قبل أن يتوقف النقاش والتناهش على ركائز الدولة ما يشهد على فشل «النخب» السياسية في الوصول إلى اتفاق بشأن شكل الدولة «المجال العام» لانتظام التعايش والعيش المشترك.

كان اللجوء إلى الفيدرالية في العراق كما في ليبيا واليمن تعبيراً صارخاً عن فشل «النخب» في جميع هذه البلدان في بناء الدولة، وهو عجز أفضى إلى استدعاء وإقحام الفاعل الديني المسيّس وأنعش سوق الإفتاء والفتاوى السجالية الاستقطابية بين من «حلل» الفيدرالية ومن «حرمها» لينخرط الجميع في أجهزة الآخرة والفعاليات القيامية الخاصة بتشييع ما تبقى من

نعش السياسة.

ولم يحتدم السجال بشأن الفيدرالية في كل هذه البلدان إلا بعد أن استفحلت مآسيها وانقساماتها وتخبطت في أتون الفوضى والصراعات القبلية والميليشياوية، وبرزت فيها قسمات الأمر الواقع المتمثلة في جماعات مسلحة بشتى أنواع الأسلحة ومتسربلة بالدين غطاءً «شرعياً» لسلوكها الغنائمي.

كان واضحاً أن الموروثات الانقسامية في ليبيا واليمن والعراق فاعلة وشرسة الحضور، وقد تكفلت الزعامات السابقة بتفخيخ المجتمع هنا وهناك كيْ «ينفجر على نفسه» في اللحظة التي ينفرط فيها التمركز حول «الحاكم» الذي اختزل البلاد والعباد في شخصه ولم يرحل إلا بعد أن عمل على تخصيب تربة الانقسامات الأهلية والحروب التي اتخذت فيما بعد مسميّات شتّى، فتارةً يقال طائفية، وأخرى يقال مناطقية أو جهوية، أو قبلية، أو شخصية، أو ثأرية، وتصفية حسابات بنوع من الاختلاط المهول الذي ذهب معه أحد الكتاب في ليبيا إلى القول إنه في لحظة مصرع القذافي ولد «عشرات القذافي» وتبدى ذلك حين تراقص رجال غاضبون حول جثة الدكتاتور.

وتفشت الجائحة الميليشياوية لتصبغ كافة الأرجاء بالدماء، وتجتذب المئات والآلاف الذين وجدوا ضالتهم في عشرات الآلاف من قطع السلاح التي خرجت من المخازن والمدافن، إضافةً إلى ما تدفق من أسلحة في جميع الجهات بعد سقوط «الزعيم»: القذافي، صدام، صالح وكلهم واحد.

*****

إنّ حساسية الموقع الجيوستراتيجي لليمن كبيرة وخطيرة للغاية إقليمياً ودولياً لاعتبارات كثيرة وأهمها: وقوعها المتاخم

والمتداخل مع المخزون الأضخم للنفط والغاز عصب الصناعة في أمريكا والغرب والعالم كله، ووقوعها في عمق أكبر سوق لشراء واستيراد الأسلحة، وهي سوق ممثلة بإمارات ومشيخات وسلطنات وممالك بدو الخليج الأكثر استيراداً للأسلحة الأمريكية والأوروبية، وتشغيلاً لمصانع وشركات الأسلحة في العالم قاطبةً، إضافةً إلى تحكمها في مضيق باب المندب الذي يعتبر من أهم ممرات ناقلات النفط العالمية العملاقة التي تنقل يومياً ما يزيد عن 15% من حجم استهلاك الطاقة في العالم.

على ذلك يصحّ القول بأن الحرب في اليمن أهدت اقتصاديات الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية مئات المليارات من الدولارات، فقد تضاعفت مشتريات السعودية ودول الخليج من الأسلحة عشرات المرات وتبعاً لذلك ضاعفت الحيوية في شرايين الاستثمارات الغربية والاستثمارات الأخرى.

ولئن كانت المملكة العربية السعودية قد قادت مع دولة الإمارات العربية المتحدة تحالفاً عربياً للتدخل في اليمن بزعم العمل على دحر انقلاب الحوثيين على «الشرعية» وإعادة الأخيرة إلى الحكم، فقد بدا واضحاً أنّ تدخل السعودية ينطلق من شعورها المزمن «بأن الخطر الأساسي على المملكة العربية السعودية المرتكزة على نجد هو اليمن فرغم أن اليمن لا يمتلك سوى ربع مساحة أرض المملكة العربية السعودية، فإن سكانها يبلغون الحجم نفسه، حيث يقع القلب الديموغرافي البالغ الأهمية لشبه الجزيرة العربية في الركن الجبلي منها» [1]

ويقول كابلان: إن مستقبل اليمن المزدحم بسكانه ذوي

1- روبرت د.كابلان، «انتقام الجغرافيا-ما الذي تخبرنا به الخرائط عن الصراعات المستقبلية»، إصدارات عالم المعرفة.

الطبيعة القبلية سيمارس دوراً كبيراً في تحديد مستقبل السعودية، وربما كان ذلك متعلقاً بالجغرافيا أكثر مما يتعلق بالأفكار..[1]

والواقع أنه كلما ازدادت معرفة المرء بتاريخ وجغرافية اليمن تناقص اندهاشه من مسار الأحداث في هذا البلد، وعليه ينبغي أن يقرأ السياق التاريخي للأحداث في اليمن من زاوية أنه يشكل القلب الديموغرافي لدول لا تريد له الاستقرار، وطالما تعاملت بالتجزئة مع كياناته القبلية والتقليدية، وتعهدت برعاية ودعم كل من لاذ بها من السلاطين والمشائخ وكافة الرموز والأطراف التي استثمرت وأثرت من إشاعة مناخ الفوضى والاحتراب.

وخلافاً للمزاعم المعلنة حول تدخل دول «التحالف العربي» في اليمن تصرح الوقائع الميدانية بأن هذه الدول استثمرت أيضاً في ضعف وهشاشة الحالة اليمنية، وفي المعضلة اليمنية التي تكمن في واقع أن المكونات القبلية والمدنية والدينية المسلحة تعمل غالباً لدى الأطراف الإقليمية، وتعول على «المساعدة» القادمة من تلك الأطراف بدرجة أساسية وشبه مطلقة!

من هنا كان تزاوج فائض العنف في اليمن مع فائض الثروة لدى دول الجوار الخليجي بسفاح أنتج حرباً لا تلوح لها نهاية بقدر ما تتجدد وتتعدد أطوارها ويتوالد منها المزيد والجديد من أمراء الحرب المستفيدون والرابحون من استمرارها.

وحتى بعد أن انقسمت دول الخليج وأعلن عن استبعاد دولة قطر في يونيو 2017 م ازداد المشهد تشوشاً وضبابيةً وتعقيداً، وازداد الانقسام في الساحة اليمنية الممزقة والمنقسمة من أصله، وتكاثرت القوى المحاربة بالوكالة التي تسلحها وتمولها

1 – المصدر نفسه.

الدول الأعضاء في التحالف، وتسعى كل واحدة منها إلى تحقيق أهداف خاصة بها، حسب تقرير فريق مجموعة الخبراء الأمميين التابعين لمجلس الأمن مطلع 2018 م.

إن الملمح الأبرز للمحنة اليمنية في بعده الخارجي الإقليمي «يتمثل في النظرة الخاطئة المسيطرة على عقل حكام المملكة العربية السعودية التي تفاقمت بصورة أكبر بعد حرب 1934 م والتي تقول إن قوة المملكة العربية السعودية في ضعف اليمن وهي فكرة خاطئة ووهم ذاتي مريض» -حسب قادري حيدر-فقد تبين أن المملكة والمتحالفين معها يفضلون «يمناً بلا دولة، يمناً بلا استقرار، يمناً بلا اقتصاد قوي، يمناً بلا وحدة وطنية، يمناً تابعا ملحقًا باللجنة السعودية الخاصة»[1].

وتلتقي السعودية مع الإمارات في مسعى إضعاف اليمن تحت مسمّى «المساعدة» لجعل حالة عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في اليمن حالة عامة، يصعب معها استرداد اليمن عافيته السياسية والوطنية لعقود طويلة.

إنها لعنة الموقع الاستراتيجي الذي كان يفترض أن يكون «نعمة» وإذا به يستحيل إلى «نقمة» وابتلاء حلّ باليمانيين.

وبفعل التدخل الإقليمي الخليجي والإيراني أصبح الصراع إقليمياً على نحو واسع، وازداد أوار الحرب اشتعالاً، وحتى المناطق والمحافظات التي كانت تبدو بعيدة عن ساحات المواجهة مع الحوثيين كمحافظة سقطرى أو محافظة المهرة التي تمتد سواحلها على بحر العرب حوالي 600 كم، أصبحت مسرحاً لتسابق دول الجوار على بسط السيطرة والنفوذ عليها، ولكم بدت هذه الدول متكالبة على تقاسم أوصال «الرجل المريض:

1 – المصدر السابق.

اليمن».

إن ثأر الجوار بل انتقام هذا الجوار من «اليمن الجمهوري» أو «اليمن التقدمي» يبدو ضارباً في عمق التاريخ والعلاقات الملتبسة بين اليمن وجيرانها وضارياً، وليس من السهل قياس تداعياته وتردداته التي سترسم معالم وملامح الأيام والأعوام القادمة.

وكما كان اختلاف «وجهات النظر» حول مصادر «المساعدات» الاقتصادية والعلاقات مع دول المنطقة الغنية و«الرجعية» يثمر نزاعات دموية وانقلابات متوالية في اليمن وفي صنعاء كما في عدن -أيام الانقسام وحتى بعد «صفقة الوحدة»- فإن هذه المساعدات مرشحة لأن تثمر متوالية لا حدود لها من النكبات والكوارث.

لقد اتسع مسرح العمليات ليشمل اليمن كلها بحراً وبراً وجواً، سواحل وصحارٍ وجزراً، واندفعت السعودية ودول الخليج بكامل عتادها إلى ساحة القرن الأفريقي التي حصدت الكثير من العوائد والفوائد بفعل حرب اليمن، وكانت دولة الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص مبادرة في الالتحاق بسياق الهجمة على اليمن.

فبعد أن ركزت وجودها في عدن وموانئ وجزر اليمن سعت أبو ظبي إلى عسكرة الأنشطة الاقتصادية لشركة موانئ دبي العالمية في القرن الأفريقي، وهناك إشارات كثيرة تفيد أنّ للإمارات دوراً وظيفياً متفقاً عليه مع البريطانيين والأمريكان وهي تلعب اليوم دور الجناح العسكري والمالي لاستراتيجية الإدارة الأمريكيّة الجديدة.

وكانت الإمارات قد دخلت عدن للمرة الأولى عام 2008 م عن طريق امتياز استثماري لشركة موانئ دبي العالمية، إلا أنها

أخلّت حينها بالشروط المتفق عليها لاستغلال ميناء عدن، وتم إلغاء الاتفاق الموقع عليه في 2008 م في 2012 م من قبل حكومة محمد سالم باسندوه.

أما اليوم فقد عادت الإمارات إلى عدن بفضل العدوان الحوثي الداخلي على عدن لتحكم سيطرتها على عدن برمتها وعلى جزر سواحل الجنوب وصولاً إلى الساحل الغربي في الحديدة، وهي تقوم حالياً ببناء قاعدة في جزيرة «ميون» لاستكمال سيطرتها على مضيق باب المندب، وتمتلك قواعد في اريتريا أو في الصومال.

اللافت أن الإمارات استندت في تحركها جنوباً على تفعيل شريحة الذاكرة البريطانية، وقامت بتدريب جيوش محلية في أكثر من محافظة تفتقر إلى تنسيق أفقي فيما بينها على نحو يذكر بالسياسة التي انتهجتها بريطانيا في عام 1928 م عندما قامت بتأسيس قوى عسكرية عدة منفصلة عن بعضها بعضاً على غرار جيش الليوي، وجيش عدن، والحرس الحكومي، والجيش اللحجي، وجيش البادية الحضرمي، والجندرمة القعطبية والكثيرية وذلك كي تتمكن من توظيف كل قوة ضد الأخرى.

في الوقت نفسه كانت تختار الجنود على أساس مناطقي وقبلي كما تفعل الإمارات اليوم تماماً وهي تعيد عبر القوى التابعة والموالية لها استخدام نفس مسميات بريطانيا لجنوب اليمن «اتحاد إمارات الجنوب العربي».

وامتداداً إلى الساحل الإفريقي أبرمت شركة موانئ دبي العالمية مطلع العام 2015 م عقداً لتطوير ميناء عصب البدائي على البحر الأحمر، ثم شرعت في الأشهر التالية في تثبيت بنية قاعدة عسكرية مؤسسة بذلك أول قاعدة عسكرية لها خارج

حدودها حول الميناء تشمل أسطولاً جويا مجهزاً لنشر سرب كامل من طائرات ميراج 2000 فرنسية الصنع، وطائرات سي M- وسي 130 التابعة لسلاح الجو الإماراتي، إضافة إلى وحدة أرضية كبيرة بحجم كتيبة مدرعة مجهزة بدبابات «اليكريك» الفرنسية، فضلاً عن منشآت تدريب للميليشيات التي توظفها الإمارات في اليمن.

وفي العاصمة الأريتيرية «أسمره» تولت الإمارات مهمة تطوير المطار المتهالك ليصبح قادراً على استقبال مروحيات هجومية من طراز «أباتشي» تابعة لـ«قيادة الطيران المشتركة الإماراتية» بالإضافة إلى مروحيات «تشينوك» و «بلاك هوك» المملوكة للحرس الرئاسي الإماراتي.

وبالفعل قامت هذه الطائرات بتنفيذ طلعات هجومية فوق مضيق باب المندب انطلاقاً من «عصب» وجرى تدريب الطيارين الجدد في سلاح الجو اليمني في «عصب» أيضاً قبل نقلهم إلى قاعدة «العند» الجوية في عدن الخاضعة بدورها للسيطرة الإماراتية، كما قامت اريتيريا بإرسال 400 جنديّ لدعم القوات الإماراتية في عدن.

وقامت الإمارات والسعودية بتحديث شبكة الكهرباء في اريتيريا وقدمتا مساعدات نفطية ومالية كبيرة، «ولم تقتصر رؤية الإمارات على استخدام اريتيريا قاعدة للعمليات العسكرية في اليمن ولكنها هدفت في المقام الأول إلى إعادة تأهيل أحد أكثر الأنظمة انعزالاً في العالم وتحويله إلى قبلة للقوات الطامحة في المنطقة»[1].

وفي الساحل الصومالي وقّعت شركة موانئ دبي العالمية

1 – د.محمد السعيد، موقع عدوليس.

اتفاقية بقيمة 442 مليون دولار لتطوير ميناء هرجيسا عام 2016 م جنباً إلى جنب مع تنشيطها لاستثماراتها في «بربره» حيث تركز هدفها في إيجاد موقع يسمح لها بالسيطرة على توريد السلع والخدمات للسوق الأثيوبية بدلاً عن جيبوتي التي كانت قد رفضت طلب الإمارات ترخيصاً ببناء قاعدة عسكرية لها على أراضيها في عام 2015م.

وشرعت الإمارات في بناء قاعدة بحرية في «بربره» بالتزامن مع صعود أبي أحمد إلى السلطة في أثيوبيا في مارس 2018 م، حيث ضخت أبو ظبي مليار دولار في النظام المصرفي الأثيوبي لتأمين استقرار احتياطات البلاد من النقد الأجنبي، إضافةً إلى تقديم ملياري دولار من المساعدات الإضافية لدعم الاقتصاد الأثيوبي، وإعلان استعدادها لتمويل بنية تحتية جديدة للربط بين أثيوبيا والموانئ في اريتيريا والصومال بتخصيص موازنة لمشاريع بنية تحتية ضخمة تشمل تمويل مد أنبوب نفط يربط بين عصب وأديس أبابا.

إن الوجود العسكري لدولة الإمارات في اريتيريا التي تمتلك أكثر من 700 ميل على سواحل البحر الأحمر يجعل من واشنطن اللاعب الأبرز في منطقة البحر الأحمر.

إضافة إلى ذلك فإن الترتيبات التي تشهدها منطقة القرن الإفريقي بما فيها المصالحة بين «أديس أبابا» و«أسمره» تتجاوز مجرد اتفاقات سلام تقليدي «خالقة دينامية جديدة في القرن الأفريقي، وتعيد هيكلة العلاقات بين القوى»[1].

1- روبرت د. كابلان، «انتقام الجغرافيا- ما الذي تخبرنا به الخرائط عن الصراعات المستقبلية»، إصدارات عالم المعرفة..

*****

وعودة إلى تدخل ما يسمّى بـ«التحالف العربي» في اليمن لا بأس من النظر إلى مآلات التدخل في أي بلد هش كاليمن أو ليبيا بالاستناد إلى قراءة عالم الاجتماع التونسي المنصف وناس فقد كتب: «إن التدخل الخارجي لا يفضي فقط إلى خراب الأبنية وهذا مقدور عليه زمنياً ومادياً، ولكنه مولّد لما هو أخطر من ذلك وهو خراب النفوس والعقول التي لا يمكن أن تنصلح -إذا ما انصلحت- إلا عبر قرون طوال من عمر الشعوب والمجتمعات، ولنا عبر في ذلك وشواهد وأمارات عديدة دالة على سطوة الذاكرة وإرهابها. ولنا عبر دامغة كذلك فيما حصل في الفيتنام ويوغسلافيا سابقاً وكوسوفو وخاصة في العراق وسوريا واليمن من دمار وتمزيق لوحدة المجتمع الجغرافية والمادية».. «إن الاستعانة بالخارج تفتح الباب على مصراعيه أمام الفوضى والمجهول».

ويضيف وناس: ففي ليبيا مثلاً، قد يكون حلف الأطلسي منع ارتكاب مجزرة، ولكنه في مقابل ذلك خلق وحشاً كاسراً لا أحد يتكهن بجرائمه، ولا أحد يدعي القدرة على السيطرة عليه، إنه وحش التشدد المسلح»[1].

ويشير إلى أن احتماء المعارضات المختلفة بمنظمة حلف الأطلسي «ليس حلاً سياسياً للمشاكل بدليل أن تدخله دمر ما هو قائم من مؤسسات على هشاشتها وولد بيئة حاضنة لعديد الميليشيات وسمح لها بشكل أو بآخر بأن تحافظ على أسلحتها وعتادها، وبأن تحصل على الأموال من أطراف خارجية وحماها قانونياً من خلال قانون حماية الثوار.. فالمشكلة لا تكمن في أن

1 – انظر كتاب «ليبيا التي رأيت.. ليبيا التي أرى»، المنصف وناس.

التدخلات الخارجية ذات كلفة بشرية باهظة، ولكن أيضاً في أنها لا تمثل حلاً بغضّ النظر عن اختلاف القراءات للواقع الليبي»[1].

«إن الأزمات السياسية المتخارجة تفتح الباب على مصراعيه أمام «المغامرين» وغير المكترثين بمصير الشعوب».

ذلك ما يحدث بالضبط في اليمن، فقد انفتح الباب على آخره أمام «المغامرين» الذين تكاثروا وأصبح بعض القادة الذين وضعت أسماؤهم على قائمة الإرهاب الأمريكية يتلقون الأموال من الإمارات ومن قطر ومن السعودية، وأصبح تنظيم القاعدة يحتل مدينة في الصباح ليختفي بـ «واقعية سحرية» في المساء، كما صار بعض كبار قادة «القاعدة» من قيادات النخب العسكرية التي جرى تشكيلها بدعم وتمويل من الإمارات، وبعضهم صار من قيادات «الجيش الوطني» إضافةً إلى أن العشرات صاروا ضمن قوام القيادات الأمنية رغم نزعاتهم الإجرامية الإرهابية.

1- المصدر نفسه.

(13)
هذيان الحطب

لست من عدن أو من صنعاء ولا أنتمي إلى أيّ جهة أو جبهة في هذه البلاد المنخورة بحراب الجهات والجبهات.

لا أدري متى استجبت لنداء اللجوء إلى الظل، ولم أستوثق من ارتباط ذلك بوشوشات غبش (الوعي الشقي) والابتلاء بالخذلان من وساطة الرياح الهوجاء والحروب التي اختلست سنوات العمر والحلم والأمل والمستقبل وتمخضتني ضحية لشتى ضروب الاختلاس، ملتاثاً بالزهايمر الفوتوغرافي، فاشلاً في اجتياز امتحان استعادة صورة النرجسيات الأولى.

تحت تأثير هذا النوع من الزهايمر اختلطت الصور والعناوين والمواعيد في ذهني وذاكرتي بتطرف تجاوز كل الحدود المتعارف عليها للتشوش والارتباك، وتهاوت التخوم الفاصلة بين مواعيدي (التاريخية)، ولم أعد أتذكر فيما إذا كنت دخلت الحزب قبل الحرب أم الحرب قبل الحزب، فيما ترجيحات الشواهد والإشارات تفيد أنّي دخلتهما في موعد واحد، فهما واحد في هذه البلاد وليس ثمة ما يمنع حذف النقطة الرابضة على (الراء) وكافة النقاط الساهرة على حبس (العربية) وأنفاس العباد والبلاد.

وفي ما يخصّ موعدي في الدخول إلى الحب يمكنني القول إنّه تأجل فهو يحتاج إلى عمر آخر، ويمكن إدراجه في خانة مشاريعي

الكثيرة المؤجلة.

أعرف جيداً أني بعد اللجوء إلى الظل تأهلت بانسياب عذب للإقامة في الغربة عن الأمكنة والناس وعن نفسي إلى أن استغرقتني الغربة واستغربتني.

اعتنقت المنفى بتدرج ومثابرة إلى أن احترفته.

لا أتذكر كم سلخت من الطرقات وكم تهشمت تحت المطارق والسياط والسكاكين، وكم هي الأرصفة والحفر التي شربت وجهي ووسامتي ورحيق الأيام والعمر، ومتى كان موعدي الأول مع الترحل.

أعرف برسوخ أنّني أقف على مسافة واحدة من الغيم والقش، من السراب والتيه والمرايا، وأنّني مترحل بحذروسلطنة، وليس بمقدوري تعريف نفسي بغير هذه الصفة. فأنا مترحل بالفطرة والسليقة، بالظاهر والمضمر، بالنظرية والممارسة، ولا أدري كيف أكون وكم أستطيع!؟

مترحل أترنح في الفراغ، لا تحتويني جهة أو جبهة، ولا أقيم على أرض، وتتقاذفني البراري حيث تقلّ الصداقة والوفاء وتكثر الضواري ويتغول العطش ويتطاول جوع التاريخ.

مترحل، شريد، مطارد، نازح بلا موعد آخر، ومثخن بالحروب دون قسط من راحة أو حتى هدنة تكفي لكتابة مشروعي – شهادتي- الذي تأجل طويلا إلى أن يحين الوقت المناسب، ويستقر الوضع، ولكن الوقت المناسب لم يحن أبدا ويبدو أنه لا يزور هذه البلاد أبدا، وكذلك هو حال الوضع فهو لا يستقر ويبدو أنه لن يستقر في قادم الأيام والأعوام بإصرار من يستكثر عليّ الانتفاع بهدنة موجزة تكبح اندفاعي في هرولة الهرب الأبدي.

تأجل مشروعي في تكوين نفسي، وبعد الخمسين ضحكت من نفسي.

حتى مشروع الرواية التي كانت النفس الأمارة قد ساورتني به في مقتبل الشغف بفتنة السرد، تأجل هو الآخر كثيراً ولم ينجز. والمحزن أن أبطال الرواية التي أنهيت كتابتها ماتوا قبل أن أكتبها، وتوجّب عليّ احترام حق الموتى «الشهداء» والكف عن التنكيل بهم روائيا، فجلّهم أصدقاء ورفاق قضوا قتلى–يرحمهم الله- وكانوا قد سمعوني وأنا أتوعدهم باكتنافهم سرديا كأبطال في رواية لا تشبه حتى نفسها!

وتأجلت الرواية على غرار كافة مشاريعي التي تأجلت وترحلت لتضاف إلى زمرة الشهود على افتقار سيرتي (النضالية) إلى الإنجاز فيما تصرّم من حطب العمر، وصار مستقبلي ورائي.

أما ما تبقى من حطام الأيام وعلى سطح الأفق الشاحب المترامي قدامي، فقد صار مغلفا بعنوان يأمرني بإعادة هيكلة وجهي بصيغة تكفل زرع عينيَّ في قفاي وتقنعني بأن أقبل بقسمة من يتوجب عليه الاكتفاء بما تبقى لديه من نعمة الإبصار لالتقاط الحصى والتحويم في (خلفيات) ما كان يحدث رأفة بعنق شارف على الانكسار تماماً جراء الالتفات الدائم إلى الخلف، في كل الأيام والأوقات والمنعطفات والندوات والاجتماعات والمسيرات والاعتصامات والخطب والمواكب الاستعراضية والجنائزية.

ليس ثمة ما يدعوني إلى التحرج من الاعتراف باحتكار كل هذا التراكم من الإخفاق في إنجاز المشاريع الصغيرة والكبرى، ولا ما يجبرني على التذرع بشماعتي الوقت والوضع، والزعم بأن الأول (ضيِّق) وغير مناسب، والثاني غير مستقر، وأنهما لا يسمحان لأمثالي بإنجاز مشاريعهم و...

ربما كانت حالتي هذه متصلة بأوّل وسواس أغواني بالقفز فوق ظلي، أو باليوم الذي هجست فيه بـ(تغيير العالم)، ووجدتني من بعده أتقلقل في أتون مرجل تلخبطت فيه خارطة مدركاتي وحساباتي إلى أن كان ما كان وتغير العالم في اتجاه معاكس تماماً لما ارتسم في الذهن والمخيال، وقررت حرمانه من دوري في تغييره بالإياب إلى منصة انطلاق ماكنة اسمها (الوطن) باعتبار أنه الأحق بجهدي ودوري، والإياب إلى منصة بعيدة ونائية على شاكلة تلك المنصات التي تنطلق منها الرسالات الخلاصية اسمها (القرية) كونها الأحق والأولى بعصارة خبرتي ومعارفي عملاً بالحديث: «خيركم.. خيركم لأهله».

وفي رحلة الإياب هذه أعتقد أني وصلت متأخراً، كما في كل مرة، ولم أجد لا هذا ولا تلك: لا وطن متخيل كنت أرجأت ترسيمات تشكيله ليضاهي جنة عدن الملذات، ولا قرية تتجاذبني مراعيها وتعانقني رباها لتعينني على تحديث أيام الصّبا.

ربما كان مردّ وضعي هذا يكمن في المسار المضطرم لحياتي التي انبنت على الترحل، وتأسست على المؤقت، الطارئ، المرتجل والمستعجل، الاعتباطي والعشوائي، وسلطة المصادفة والانطفاء المتوهج.

وربّما اعتصمت بكبرياء (مناضل سابق) اكتوى بجحود العالم وظلم ذوي القربى، وانطوى على خيبة (اليسار) وانحسار أبعاد (القضية) وعلى انجراح كرامته في قومه دون أن يعزي النفس باستذكارات فولكلورية طقوسية عن المكابدات والآلام التي تعرض لها الأنبياء والعباقرة في هذه الدنيا، فلا كرامة لنبي.

في هذه الغضون لم أعد أحس بالانتماء إلى العالم، ولا إلى وطن ولا إلى قرية أو جماعة أو قبيلة، وليس ثمة تل يتهادى

أمامي ليعصمني وأحتمي به من هستيريا النيران الهاذية بشراهة مستنفرة لالتهام كل الأشياء والكائنات في طريقها، فالتلال محتلة ومغتصبة، ومزروعة بالصواريخ والمدافع ومخازن السلاح والمتراشقين بالحمم.

وحين حسبت أني استعدت وعي نفسي –إن كنت وعيتها فعلاً- وقررت انتهاج سبيل الدفاع عن النفس، عانيت كثيراً ومازلت أعاني من الارتطام بصعوبات لا حصر لها، ومن التعثر المؤلم والمنهك لمحاولاتي السيزيفية لاستخلاص الاستراتيجية المطلوبة للدفاع عن النفس، لأن معرفتي وخبرتي المتراكمة انصبت على بناء الاستراتيجيات الكبرى المتعلقة بتغيير العالم، وعلى إشعال الثورة من شرارة، وعلى بناء البلدان والأوطان والأحزاب والجبهات والتحالفات، وعلى تحويل الإنسان إلى قرد أو قنبلة أو حزام ناسف. ولم يخطر على بالي قطُّ أني سأرتطم باليوم الذي سأفكر فيه بصياغة استراتيجية ضئيلة كهذه: الدفاع عن النفس.

في كل الأحوال لم أجد بدّا من التمسك بشعار (الدفاع عن النفس) ليس لأني رضعت من حليب الشعارات، وليس لأن طاقة العيش عندي تشتغل فقط على وقود الشعارات، بل لأني لا أملك غيرهذا الخيارالذي ينبغي أن يتمسك به من يقبل بمجازفة البقاء على قيد العيش بين جداول الشوك والنار، ويقتصرعلى الإقامة في بلاد هائجة مائجة بالأشباح وحملة السلاح الخفيف والمتوسط والثقيل والأبيض والأسود والرمادي.. بلاد من الخرائب والأطلال التي لم تعد تصلح حتى لكتابة البكائيات. الدفاع عن النفس ليس بالمهمة السهلة ويحتاج إلى تحصينات قنفذ واستشعار فأر، وإلى روية وتمارين قاسية وترويضات تأهيلية. يحتاج إلى أن

تكون قوقعة أو ذبابة وإلى سياقات أخرى لا تخطر على بال وهو شعار لا مناص من استردافه بالنسبة إلى شخص اعتاد الاقتيات على فتات الشعارات في كافة المراحل والمنعطفات، وإلى من يروم الإفلات من حصار الشبهات والمتربصين والقناصة وهباء القبائل والعشائر المتقاتلة والقتلة الذين يتفشون في الأرجاء أكثر من الطاعون، ويتناهشون ويتراشقون بكرات اللهب وصخور الحقب، بضراوة الجوارح والجوائح، ويتحاشاهم عزرائيل وتتنكر لهم آلهة الحرب وأساطيرها.

القتلة في هذه البلاد هم الفائض الأكثر غزارة والمنتج الذي يصدر إلى كافة البلدان من أفغانستان إلى البلقان والشيشان والعراق وسوريا ولبنان ويكاد لا يخلو أي بلد من بصمة الدم اليمني، ومن ضلوع اليمانيين في الانقسام بين فرقاء الحروب وأمراء الجهات والجبهات، ومع أي «نظام» ومع أي ثائرين على النظام.

وهنالك الكثير من الحكام والوزراء والقضاة وأولياء الأمر الذين يتوحدون في صفة أنهم قتلة سابقون وأنهم (الكادر) الأوفر حظاً في اغتنام المناصب.

والمنصب يستخدم هنا لغسل السوابق، على منوال غسيل الأموال بالنسبة إلى تجار المخدرات والأسلحة المحرمة والمهربين.

والقتلة هنا صاروا أكبر من حجم الطاقة الاستيعابية للبلاد وأكبر مما تحتاجه الحروب المشتعلة والمؤجلة، وتلك التي لم تنشب بعدُ، وهم يتمتعون بالعفو من تهمة القتل العمد، ويغتسلون بالمناصب المحصنة، ويتحولون غالباً إلى «سفراء»، وأولياء أمر وخبراء في إدارة الحروب وتعظيم الخرابات وإشعال الحرائق، وخبراء في فك النزاعات وفبركة أشكال (الهدنة)

والإشراف على مواثيق الصلح والسلام وتوقيعها بفتائل متحفزة للاشتعال بعد حقنها وتلغيمها بأسباب حروب سريعة الاندلاع أو حروب مستدامة و... الخ.

إنهم يتقاتلون وما إن تنتهي الحرب التي يشعلونها فيما بينهم –أحياناً- وعلى غيرهم –غالباً- حتى تراهم يتفاوضون في نفس (المقيل) ويتحلقون على طاولة تسمّى –غالباً- (الحوار الوطني) بحميمية وألفة قتلة سابقين. ويقومون بغسل أنفسهم وبعضهم بعضاً، وبعد التدليك والتسمين يعلنون «التوافق» من أجل تسيير المرحلة الجديدة، ويخرجون ببيان «تاريخي مهم» لـ«الشعب». والشعب في هذه البلاد هو المصطلح الأكثر غموضاً والتباساً. هو كل شيء ولا شيء، وحمال لكل الأوجه وبلا وجه.

في وضع كهذا يُراد لك أن تمشي على رؤوس أصابعك وأن تتحسس رقبتك ورأسك في كل ثانية، وأن تنحت فرادتك في تدبر المستحيل و...

للاطلاع على آخر إصداراتنا أو تقديم مقترحاتكم يمكنكم زيارة صفحتنا على
الفايس بوك:ميارة للنشر والتوزيع www.facebook.com/mayara éditions